المحور الأول

التعريف العام بالإسلام

غير مرخصة للطباعة

٩

ثقافتنا
بين الانفتاح والانغلاق

الإمـام يوسف القرضاوي

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

من الدستور الإلهي للبشرية

قال الله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

﴿لَيۡسُواْ سَوَآءٗۗ مِّنۡ أَهۡلِ ٱلۡكِتَٰبِ أُمَّةٞ قَآئِمَةٞ يَتۡلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ ٱلَّيۡلِ وَهُمۡ يَسۡجُدُونَ ۞ يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِ وَيُسَٰرِعُونَ فِي ٱلۡخَيۡرَٰتِۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ۞ وَمَا يَفۡعَلُواْ مِنۡ خَيۡرٖ فَلَن يُكۡفَرُوهُۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلۡمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١١٣ ـ ١١٥].

﴿ٱلَّذِينَ يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقَوۡلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحۡسَنَهُۥٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمۡ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [الزمر: ١٨].

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

من مشكاة النبوة الخاتمة

عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: كان سهل بن حنيف وقيس بن سعد قاعدين بالقادسية، فمروا عليهما بجنازة، فقاما، فقيل لهما: إنها من أهل الأرض. أي من أهل الذمة. فقالا: إنّ النبي ﷺ مرت به جنازة فقام، فقيل له: إنها جنازة يهودي. فقال: «**أليست نفسًا**». متفق عليه.

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «**أصدق كلمة قالها الشاعر، كلمة لبيد: ألا كل شيء ما خلا الله باطل. وكاد أمية بن أبي الصلت أن يسلم**». متفق عليه .

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: لما قدم النبي ﷺ المدينة وجد اليهود يصومون عاشوراء، فسئلوا عن ذلك، فقالوا: هذا اليوم الذي أظفر الله فيه موسى وبني إسرائيل على فرعون، ونحن نصومه تعظيمًا له. فقال رسول الله ﷺ: «**نحن أولى بموسى منكم**». ثم أمر بصومه». متفق عليه.

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

ربنا لك الحمد حمدًا كثيرًا طيبًا مباركًا فيه، ملء السماوات، وملء الأرض، وملء ما شئتَ من شيء بعد، وصلاة وسلامًا على خاتم رسلك وأنبيائك، الذي مننتَ به على المؤمنين، إذ بعثتَه رسولًا منهم يتلو عليهم آياتك ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين. وارضَ اللهم عن آله وصحبه، الذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتَّبعوا النور الذي أنزل معه، أولئك هم المفلحون.

(أما بعد)

فلا زالت «المسألة الثقافية» هي الشغل الشاغل للناس، منذ بواكير النهضة إلى اليوم.

ولم يبرح الجدل مستعرًا حول طبيعة «الثقافة» ما هي؟ وما حقيقتها؟ وهل تقتصر على الجانب المعرفي أو تتعداه إلى سائر جوانب الحياة الإنسانية؟ وهل هناك فرق بين الثقافة والحضارة؟

وهل هناك ثقافة كونية أو تظل لكلِّ أمة ثقافتها الخاصة بها؟

وما هي إذن ثقافتنا المعبرة عنا: أهي عربية أم إسلامية أم هما معًا؟

QaradawiBooks.com

وهل الثقافة «الإسلامية» هي الثقافة «الدينية» أو هي أوسع مدى منها؟

وما خصائص ثقافتنا العربية الإسلامية؟

هل هذه الثقافة ثقافة منغلقة، كما قد يتوهم المتوهمون، أو يشيع ذوو الهوى؟ أو هي ثقافة منفتحة على الثقافات؟

وهل معنى ذلك أن هناك انفتاحًا مقبولًا، وانفتاحًا محذورًا؟

وما المراد من الانفتاح المحذور؟ وما أنواعه؟

عن هذه الأسئلة المهمة تجيب هذه الدراسة الموجزة، محذِّرة من ثلاثة أنواع من الانفتاح: الانفتاح قبل التهيؤ والنضج، والانفتاح المتساهل في الأخذ والاقتباس، والانفتاح المبهور بالغير. مبينة أن الانفتاح الحق هو الذي يبقي على هوية الأمة وثوابتها، ويأخذ ما يأخذ من غيرها، دون أن يمس جوهرها.

ومهمة هذه الدراسة أن تؤصِّل هذه المعاني تأصيلًا شرعيًّا، فلا نعلق كلامًا في الهواء غير مسنود بالأدلة التي تشد أزره، بل نعتمد ـ أول ما نعتمد ـ على كتاب الله وعلى سنة رسوله الموثقة من مصادرها، مستأنسة بتراث الأئمة، وبأقوال أعلام الأمة، متبعة «سبيل المؤمنين»، ومبتعدة عن «سبيل المجرمين».

كما ختمت الدراسة بذكر نموذجين عمليين من نماذج الانفتاح في ثقافتنا، وإن كان كلٌّ منهما له شخصيته وتوجُّهه، أحدهما من المشرق الإسلامي، وهو الإمام أبو حامد الغزالي، والثاني من المغرب الإسلامي، وهو الإمام أبو الوليد بن رشد الحفيد.

QaradawiBooks.com

وهذه الدراسة تكملة لدراستنا السابقة «الثقافة العربية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة»، ومستفيدة منها أيضًا.

وإني لأرجو أن تفيد هذه الدراسة القارئ العربي والمسلم، وتزيد من وعيه، وخصوصًا في هذا الوقت، الذي تحتدم فيه المعركة، ولا سيما في بلدنا العزيز مصر، بين المثقفين الإسلاميين والمثقفين العلمانيين، منذ نشرت «وزارة الثقافة المصرية» على نفقتها: رواية القصَّاص السوري حيدر حيدر، المسمَّاة «وليمة لأعشاب البحر»، وفيها ما فيها من استخفاف بذات الله تبارك وتعالى، وبرسله، وكتبه، ولا سيما محمد ﷺ، والقرآن الكريم. وهو ما أثار الشارع المصري، الذي انفجر فجأة، لأمور تراكمية، احتملها الشعب على كره ومضض؛ حتى أدَّت إلى الانفجار مؤخرًا. والشاعر العربي يقول:

وإذا الذئابُ استنعجتْ لك مرةً فحذارِ منها أن تعودَ ذئابًا!

ولقد أنطقت هذه القضية «الأزهر» الذي طال سكوته، فلما تكلم أسمع العالم كلَّه؛ لأنه تكلم بصوت جهير، وتكلَّم كلُّه: مجمع بحوثه، وشيخه الأكبر، ومدير جامعته، وطلابه وطالباته. مما يدلنا على أهمية هذه المؤسسة، وضخامة دورها في مصر، وفي العالم العربي والإسلامي، حين تؤمن بغايتها، وتستبين طريقها. وهذا ما تحسب له القوى المعادية ألف حساب، وتجتهد أن تحول دونه. ويمكرون ويمكر الله، والله خير الماكرين.

لقد أفرزت هذه المعركة الأخيرة ظاهرة لا يحسن السكوت عليها بحال، فقد بدا الأمر وكأن الثقافة في مواجهة الدين، والدين في مواجهة الثقافة. وهذا أمر ينذر بخطر كبير، وشرٍّ مستطير، إذ المفروض أن تكون

QaradawiBooks.com

ثقافة الأمة في خدمة دينها، لا في مواجهته، وإلا مزقت الأمة من داخلها شرَّ ممزق.

ونحن حين نقول «الدين» لا نعني الدين كما يفهمه الجامدون، ولا كما يفهمه الجاحدون، فما أضاع الدين إلا جامد وجاحد، كما قال شكيب أرسلان رَحِمَهُ اللَّهُ. إنما أعني بالدين: الإسلام كما نزل به القرآن، وكما دعا إليه الرسول الكريم، وتلقاه عنه صحابته، وكما فهمه تيار الوسطية الإسلامية رسالة شاملة متكاملة متوازنة، ترحب بالحوار، وتؤمن بالتجديد، وتنير العقل والقلب، وتسعد الفرد والمجتمع، وتجمع بين حسنتي الدنيا والآخرة.

وهذا ما نؤمن به، وندعو إليه، ونحيا له، ونموت عليه. ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ۝ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣].

الدوحة في ربيع الأول سنة ١٤٢١هـ

حزيران (يونيو) سنة ٢٠٠٠م

يوسف القرضاوي

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

ثقافتنا
مفهومها وخصائصها

- تمهيد.
- مفهوم الثقافة.
- ثقافتنا بين الثقافات.
- بين الثقافة الدينية والثقافة الإسلامية.
- خصائص ثقافتنا العربية الإسلامية.

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

غير مرخصة للطباعة

تمهيـــد

أهمية هذا البحث في عصر العولمة:

في هذا العصر الذي يســمونه «عصر العولمة» يتحدث الناس كثيرًا عن «الانفتــاح» و«الانغلاق» فمن شــأن «العولمة» أن تزيــل الحواجز، وتقرب المسافات، وتذيب الفوارق، سواء أكان ذلك في دنيا الاقتصاد أم في دنيا الثقافة. وهذا يعني «الانفتاح» دون حــدود أو ضوابط، في هذا العالم الجديد.

على حين يتخوف آخرون من مغبة هــذا الانفتاح المطلق المنطلق، الذي ينتصر فيه عادة القوي، ويسحق فيه الضعيف، فيخشى هؤلاء من العرب والمسلمين على ذاتيتهم وأصالتهم وثقافتهم المتميزة، أن تقتلعها الرياح الهوج باســم العولمة، فهم لذلك ينادون بالتقوقع على النفس، والانكفــاء على الــذات، وإغلاق الأبــواب أمام هذا الغــازي الجديد الكاســح. ويرون الســلامة في الفرار من المواجهــة، ما دمنا لا نملك أســلحة المقاومة المكافئة لما يملكه الغزاة الجدد، ولا ســيما أن هذا الغزو يتواكب مع ما تريده دولة الكيان الصهيوني من «تطبيع» يشــمل «التطبيع الثقافي».

نسخة مجانية

تُرى أي الفريقين أقوم قيلًا، وأهدى سبيلًا: دعاة الانفتاح المطلق، أي فتح الأبواب على مصاريعها أمام الثقافات ما طاب منها وما خبث، أم دعاة الانغلاق، المطلق، أي إغلاق الأبواب كلها، هربًا من اللقاء والمواجهة؟

أم هناك طريق وسط بين الطرفين، يسمح بانفتاح منضبط، يأخذ خير ما عند الآخرين، ويستفيد من تجاربهم، ويلتمس الحكمة من أي وعاء خرجت، ويعطيهم كذلك مما لديه من قيم ومفاهيم وشرائع وتجارب، وممارسات حضارية، فهو يأخذ ويعطي، ويستورد ويصدِّر، ويستقبل ويرسل؟

أعتقد أن هذا المنهج الوسطي هو المنهج المرضي، وهو الذي نحاول أن نلقي بعض الضوء عليه في دراستنا هذه، وتأصيله من الناحية الشرعية، حتى يحوز الرضا والقبول من الأمة، التي رضيت بالله ربًّا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولًا، وبالقرآن إمامًا.

ولكن قبل أن نتحدَّث عن ثقافتنا بين الانفتاح والانغلاق، ينبغي لنا أن نحدد: ماذا نعني بثقافتنا؟

* * *

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

مفهوم الثقافة

وقبل أن نتحدث عن ثقافتنا وماذا نعني بها، لا يسعنا إلا أن نكتب سطورًا نلقي بها شعاعًا على معنى كلمة «الثقافة» ومفهومها، والمقصود منها، وقد باتت من الكلمات أو المصطلحات الشائعة على الأقلام والألسنة، وهي من الكلمات الحديثة، فلم يكن لها هذا المفهوم في تراثنا الأدبي.

ولهذا عرَّفها «المعجم الوسيط» الذي أخرجه مجمع اللغة العربية بأنها: العلوم والمعارف والفنون التي يطلب الحذق فيها. ونص على أنها «محدثة»[(١)].

وبالرجوع إلى معاجم اللغة يتضح لنا أنا مادة «ث. ق. ف» تدل على الحذق والفطنة أو التعديل والتقويم.

يقال: ثقُف الرجل. أي صار حاذقًا فطنًا فهمًا. وقالوا: رجل ثقِف لقِف. أي راو شاعر رام، وقال ابن السكيت: رجل ثقف لقف، إذا كان ضابطًا لما يحويه قائمًا به[(٢)].

(١) المعجم الوسيط (ث. ق. ف).

(٢) تهذيب اللغة للأزهري (٨١/٩)، تحقيق محمد عوض مرعب، نشر دار إحياء التراث العربي، بيروت، ط١، ٢٠٠١م.

QaradawiBooks.com

وقالوا أيضًا: امرأة ثَقَاف ـ على وزن سحاب ـ أي فطنة. ومنه قول أم حكيم بنت عبد المطلب لأم جميل بنت حرب عندما حاورتها: إني حَصَانٌ فما أُكَلَّم، وثَقَاف فما أُعلَّم[١].

والثقاف «بكسر الثاء»: ما تسوَّى به الرماح، وهي حديدة تكون مع القوَّاس والرمَّاح يقوَّم بها الشيء المعوج. يقال: ثقفه تثقيفًا. سواه وقومه، ومنه: رمح مثقَّف، أي مقوَّم مسوَّى.

وثاقفه مثاقفة وثقافًا، فثقفه: غالبه فغلبه في الحذق والفطانة وإدراك الشيء وفعله، وهو مستعار كما قال الراغب[٢].

قال شارح «القاموس»: ومن المجاز: التثقيف: التأديب والتهذيب. يقال: لولا تثقفك وتثقيفك ما كنت شيئًا، وهل تهذبت وتثقفت إلا على يدك[٣]؟ انتهى.

ومن معنى التأديب والتهذيب ومعنى الحذق والفطانة والفَهم، أخذ المُحْدثون كلمة «الثقافة» وما اشتق منها، وتحدث من تحدث عن أزمة المثقفين، وعن التراث الثقافي، وعن الغزو الثقافي، أو الاستعمار الثقافي، وأُنشئت مؤسسات، بل وزارات في عدد من الأقطار للثقافة.

ومع شيوع كلمة «الثقافة» نراهم قد اختلفوا في تحديد مفهومها، ككثير من المصطلحات المعاصرة.

---

(١) انظر: الغريبين في القرآن والحديث لأبي عُبيد الهروي (٢٨٦/١)، نشر مكتبة نزار مصطفى الباز، السعودية، ط١، ١٩٩٩م.

(٢) المفردات في غريب القرآن مادة (ث. ق. ف).

(٣) تاج العروس (ث. ق. ف).

QaradawiBooks.com

فهناك مَن يقصر «الثقافة» على «الجانب المعرفي» في الحياة، أي ما يتعلَّق بالعلم والفكر والأدب والفن. ولعل هذا ما يفهم من تعريف «المعجم الوسيط» الذي ذكرناه.

وهناك مَن يوسِّع مفهوم الثقافة بحيث لا تقتصر على الجانب المعرفي والفكري، بل تشمل الجانب الوجداني الذي يعنى به الفن، والجانب الروحي الذي يعنى به الدين، والجانب العملي أو السلوكي الذي تعنى به الأديان والأخلاق، بل تشمل الجانب المادي أيضًا من الحياة.

فالثقافة: أفكار ومعارف وإدراكات، ممزوجة بقيم وعقائديات، ووجدانيات، تعبِّر عنها أخلاق وعبادات، وآداب وسلوكيات، كما تعبِّر عنها علوم وآداب وفنون متنوعات، وماديات ومعنويات.

قال صاحبي: هل تعتبر بذلك «الأكل» مثلًا ثقافة؟ قلت: إذا كان المقصود بالأكل البلع والمضغ والهضم، فليس من الثقافة في شيء، فهذا أمر يشترك فيه الإنسان والحيوان، بل الحيوان متفوق فيه على الإنسان. فالحيوان قطعًا أوسع بطنًا، وأكثر أكلًا من الإنسان.

ولكن إذا قيل للإنسان: «**سَمِّ الله، وكُل بيمينك، وكل مما يليك**»[1] وكُل من الحلال الطيب، ولا تأكل خبيثًا مما حرَّم الله عليك، وكُلْ في إناء مباح لا في ذهب ولا فضة، وكُلْ عندما تجوع، وإذا أكلتَ فلا تسرف. فما ملأ ابن آدم وعاء شرًّا من بطنه. وإذا فرغت من طعامك فقل: الحمد لله. إلى آخر هذه الآداب، فهنا يصبح الأكل ثقافة، وليس مجرد عملية حيوانية.

(١) رواه البخاري في الأطعمة (٥٣٧٦)، ومسلم في الأشربة (٢٠٢٢)، عن عمر بن أبي سلمة.

غير مرخصة للطباعة
نسخة تجريبية
QaradawiBooks.com

وهكذا «المشي» فالإنسان يمشي، والحيوان يمشي، كما قال القرآن الكريم: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ﴾ [النور: ٤٥]. ولكن إذا قيل للإنسان: ﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ﴾ [لقمان: ١٩]. سواء فسِّرت بمعنى: اجعل لمشيك مقصدًا وهدفًا. أو اعتدل في مشيك، لا تسرع إسراع الحمقى، ولا تبطئ إبطاء المتماوتين، وكن من عباد الرحمٰن، ﴿ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾ [الفرقان: ٦٣]، ﴿وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا﴾ [الإسراء: ٣٧]. فهنا يغدو المشي ثقافة.

وكل الأمور المادية تنقلب إلى ثقافة إذا ارتبطت بقيمة وهدف نبيل، ومعايير وآداب ترقى بها، وتنقلها من المعنى الحيواني إلى الأفق الإنساني.

صحيح أن الجانب المعرفي والفكري له أولوية على غيره، على أساس أن الفكر يسبق الحركة، وأن العلم يسبق العمل، وأن حركة الإنسان لا تستقيم إلا إذا استقام فكره وتصوره، ومن هنا يقدم الدين الإيمان والعلم على العمل، ولذا كان أول ما نزل من القرآن: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾ [العلق: ١]. لأن القراءة مفتاح العلم، وهو مقدم. ثم نزل بعدها: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝ قُمْ فَأَنذِرْ ۝ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۝ وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ ۝ وَلِرَبِّكَ فَٱصْبِرْ﴾ [المدثر: ١ ـ ٧]. فأمر بالعمل بعد العلم.

ونحن في استعمالنا العادي نبرز الجانب المعرفي ونقدِّمه، فإذا رأينا إنسانًا قارئًا متنوع القراءة، ملمًّا بما يجري في الحياة، غير جاهل بالتراث، نقول عنه: إنسان مثقف. ولا نصف بهذا مَن كان بارعًا في تخصصه، متفوقًا فيه، ولكنه إذا خرج من دائرته، وجدتَه أشبه بالعامي.

QaradawiBooks.com

ولذا قيل: المتخصص مَن يعرف كل شـــيء عن شيء، والمثقف مَن يعرف شيئًا عن كل شيء. وقديمًا كانوا يقولون هذا عن العالم والأديب. فالعالم هو المتخصص، والأديب هو المثقف بلغة عصرنا.

ولا يزال كثيرون إذا أطلقــوا كلمة «الثقافة»، يريــدون بها ما يتعلق بالجانب الفكري والأدبي، وعلــى ضوء هذا صدرت مجلة «الثقافة» في مصر، التي كان يرأس تحريرهــا العالم المفكر الأديب الأســتاذ أحمد أمين. واستمرَّت سنين طويلة، ثم توقفت.

والأستاذ الفيلسوف الدكتور زكي نجيب محمود حينما أصدر كتابه «ثقافتنا فــي مواجهة العصــر»، كان يعني في الدرجــة الأولى الجانب الفكري والأدبي أي الجانب المعرفي.

ونحن حينما أصدرنا كتابنا «ثقافــة الداعية» كنا نقصد هذا المعنى؛ ولذلك تحدثنا عن ستة أنواع من الثقافة يفتقر إليها الداعية، وتعتبر زادًا ضروريًّا لــه، وأدوات لا بد منهــا لبيان دعوته وإيضــاح فكرته، وهي: الثقافة الدينية، والثقافــة اللغوية والأدبية، والثقافــة التاريخية، والثقافة الإنسانية ـ ما يتصل بالعلوم الإنســانية والاجتماعية ـ والثقافة العلمية، والثقافة الواقعية.

وكذلك حينما تحدثنا في كتابنا «الفتوى بين الانضباط والتســيب» عن «ثقافة المفتي» اللازمة لمَن يتصدى لوظيفــة الإفتاء، كنا نعني بها هذا الجانب.

ومع أولوية جانب العلم والمعرفة، فهذا لا يجعله وحده هو الثقافة، بل نقول: هو بابها ومدخلها، والفصل الأول في كتابها.

QaradawiBooks.com

ويتساءل كثيرون عن الفرق بين الثقافة والحضارة، وقد حاول البعض أن يفرق بين الكلمتين، بأن الثقافة لا تشمل الجانب المادي، وقد رأينا أنها تشمله بالمعنى الذي شرحناه.

وفرَّق بعضهم بأن الثقافة تتعلَّق بالجانب الفردي، والحضارة تتعلَّق بالجانب الاجتماعي، وهذا تفريق غير مسلَّم، فالثقافة كما تتصل بالفرد، تتصل بالمجتمع والأمة؛ ولهذا يقول الكُتّاب والباحثون: الثقافة العربية، والثقافة اللاتينية، والثقافة السكسونية، والثقافة الأمريكية، والثقافة اليابانية، والصينية، إلى آخره. نجد النسبة هنا إلى أمم، وليس إلى أفراد.

وقد تنتسب الثقافة إلى أديان، كما يقال: الثقافة الإسلامية، والثقافة اليهودية، والثقافة المسيحية، والثقافة البوذية. والثقافة الشيوعية. وهذه ضد الأديان، ولكنها كما سمَّى بعضهم هذه الأيديولوجيات الوضعية «أديان بغير وحي».

والواقع أنه لا يكاد يوجد فارق في الاستعمال المعاصر بين الثقافة والحضارة، فكلٌّ واحدة من الكلمتين توضع مكان الأخرى.

* * *

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

ثقافتنا بين الثقافات

ولا شك في أن المقصود بثقافتنا في هذا المجال هي الثقافة العربية الإسلامية، وهي الثقافة المعبرة عن هوية الأمة وفلسفتها ونظرتها الكلية إلى الوجود، وإلى المعرفة، وإلى القيم، وبعبارة أخرى: إلى الله والإنسان، والكون والحياة. أو إلى المبدأ والمصير، والغاية والرسالة.

والأمم بلا ريب تختلف في ثقافاتها اختلافًا كبيرًا، فمنها ما تتجه ثقافتها إلى الروح، ومنها ما تتجه إلى العقل، ومنها ما يتجه إلى الحس أو المادة، ومنها ما يجمع بينها جميعًا. من الثقافات ما يتصل بالأرض، ومنها ما يتصل بالسماء، ومنها ما يتصل بالسماء والأرض معًا.

منها ما يعترف بالله ربًّا خالقًا، ولا يعترف به إلهًا معبودًا، ومنها ما يعترف به معبودًا ولا يعترف به حاكمًا أعلى، من حقه أن يأمر وينهى ويشرع لعباده، ويحل لهم ويحرم عليهم. ومنها ما يجمع لله بين هذه الأمور كلها، فهو لا يبغي غير الله ربًّا، ولا يتخذ غير الله إلهًا، ولا يبتغي غير الله حكمًا.

ومنها ما لا يعترف لله بشيء من ذلك، إنما يؤله نفسه، أو يؤله أحدًا من جنسه أو من غير جنسه، ويزعم أن الله لم يخلق الإنسان، وإنما الإنسان هو الذي خلق الله، أي اخترع فكرة الألوهية ليخدع بها نفسه، أو

نسخة مجانية

يخدع بها الآخرين ويلهيهم عن المطالبة بحقوقهم المنهوبة بما يوعدون به في الآخرة المزعومة، وبهذا تخدر الشعوب والجماهير بأفيون الدين.

غير مرخصة للطباعة

ثقافتنا عربية إسلامية:

إن ثقافتنا ـ نحن العرب والمسلمين ـ ثقافة متميزة، سنتحدث عن خصائصها بعد قليل. ولكن كثيرين يسألون عن هوية هذه الثقافة: أهي عربية أم إسلامية؟ وهم يقيمون صراعًا متوهمًا بين العروبة والإسلام، وكأن إثبات أحدهما ينفي الآخر بالضرورة.

وهذا غير صحيح، فإن العربية هي لسان الإسلام، لسان قرآنه وسنة نبيه، ولسان عبادته، ولسان التفاهم المشترك بين علمائه، والعروبة هي وعاء الإسلام، ورسول الإسلام عربي، وصحابته الذين تربوا في حجره عرب، ومنطلق الإسلام من أرض العرب، ومساجد الإسلام الكبرى، التي لا تشد الرحال إلا إليها، كلها في أرض العرب.

والإسلام هو الذي أخرج العرب من الظلمات إلى النور، وحولهم من رعاة غنم إلى رعاة أمم، وهو الذي علَّمهم من جهالة، وجمعهم من فرقة، وأورثهم ممالك الأكاسرة والقياصرة، وجعلهم بنعمته إخوانًا، وجعل لهم ذكرًا في العالمين.

الإسلام هو الذي جعل العرب «أمة» بعد أن كانوا قبائل متناحرة، وجعل لهذه الأمة رسالة وحَّدت أهدافهم وآمالهم، وجنَّدت طاقاتهم في سبيلها.

ومن الملاحظ أن كلمة «العروبة» في مصر وفي بلاد المغرب العربي كلها، ممتزجة بالإسلام امتزاج الجسم بالروح، فلا يكاد يفرق الفرد العادي

QaradawiBooks.com

بينهما. إذا قلت: اللهم انصر العرب. تساوي عنده: اللهم انصر المسلمين. والعربي عند المغاربة يعني المسلم. وقد عبر عن هذا المعنى الشاعر المصري المعروف محمود غنيم في قصيدته الشهيرة «وقفة على طلل» فقال:

هي العروبةُ لفظٌ إن نطقت به فالشرق والضاد والإسلام معناه[1]

والقوميون العرب الأقحاح يجعلون أساس العروبة اللغة والتاريخ، واللغة هي لغة القرآن، والتاريخ الحي للعرب هو تاريخ الإسلام.

ومن هنا لا نرى تناقضًا بين العروبة والإسلام، ولا نجد أي غضاضة في وصف ثقافتنا التي نعتز بها والانتماء إليها: أنها ثقافة عربية إسلامية معًا ـ لا نقول هذا مجاملة للإسلام، ولا تملقًا للعروبة، بل هي الحقيقة الناصعة التي دلَّت عليها كلُّ الدلائل والبراهين.

هي ثقافة عربية، بحكم اللغة الأساسية التي كتبت بها، وعبرت عنها.

بحكم روح القرآن العربي السارية في جنباتها، المؤثِّرة في أعماقها.

بحكم تأثير البيان النبوي العربي والأسوة المحمدية في مسيرتها.

بحكم أن العنصر العربي كان هو العنصر الأول في تكوينها.

بحكم أن جزيرة العرب كانت مهبط وحيها، ومنطلق دعوتها.

وهي مع ذلك، وقبل ذلك: ثقافة إسلامية بلا ريب:

بحكم الأهداف التي تتوخَّاها، والحوافز التي تدفعها.

بحكم الفلسفة والتصورات التي تحرِّكها، وتفجِّر طاقاتها.

(١) الأعمال الكاملة لمحمود غنيم (٨٠/١)، نشر دار الغد العربي، ١٩٩٣م.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

بحكم الأجناس والعناصر الإســلامية المختلفة، التي شاركت فيها عربًا وعجمًا.

بحكم الرقعة الواســعة التي كانت مجالًا لها من الصين شــرقًا إلى شواطئ الأطلسي غربًا.

فالصواب ـ إذن ـ أن نقــول: ثقافة عربية إســلامية، وحضارة عربية إسلامية. وبذلك ننصف الحقيقة، وننصف العروبة والإسلام جميعًا.

* * *

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

بين الثقافة الدينية والثقافة الإسلامية

والثقافة الإسلامية التي نعنيها، ليست مجرد «الثقافة الدينية» كما يتوهم بعض الناس. فكل ما هو «إسلامي» أوسع مما هو «ديني»، باعتبار أن الإسلام دين ودنيا.

وهذا يلتبس فَهمه على كثير من المتعلمين، في قضايا كثيرة، فمنهم مَن يتحدث عن «التربية الدينية» ويحسب أنها هي «التربية الإسلامية». هذا مع أن التربية الدينية واحدة من أنواع شتى من التربية كلها إسلامية، مثل: «التربية العقلية»، و«التربية الخلقية»، و«التربية البدنية»، و«التربية المهنية»، و«التربية الاجتماعية»، و«التربية العسكرية»، و«التربية الجنسية»، إلى آخره. ومنها: «التربية الدينية» أو «الروحية».

وكذلك نقول هنا: إن «الثقافة الإسلامية» تشمل فيما تشمل: «الثقافة الأدبية واللغوية»، وتشمل «الثقافة التاريخية»، وتشمل «الثقافة الإنسانية» التي تتصل بالعلوم الإنسانية والاجتماعية، وتشمل «الثقافة العلمية» المتصلة بالعلوم الطبيعية والرياضية، وتشمل «الثقافة الفنية» التي تتصل بالفنون المختلفة، وتشمل «ثقافة الواقع» سواء أكان واقع المسلمين أم واقع غيرهم. كما تشمل الثقافة الدينية أيضًا.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وسنشـــير في حديثنا عن خصائص هـــذه الثقافة ما يبيـــن تنوُّعها وشـــمولها لكلِّ مســـارات الحياة، مادية ومعنويـة، دينيـــة ودنيويـة، فرديـة واجتماعية.

❊ ❊ ❊

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

خصائص ثقافتنا العربية الإسلامية

ولثقافتنا العربية الإسلامية خصائص تميِّزها عن غيرها من الثقافات، يحسن بنا هنا أن نسلط عليها شعاعًا يجلِّي لنا ملامحها الأساسية.

فمن خصائص هذه الثقافة:

الربانيــة: فهي ثقافة معجونــة بالجانب الإلهي، قــد امتزجت فكرة الإيمان عامة، والتوحيد خاصــة، بجوانبها كلِّها، جرت فيها مجرى الدم في الشعيرات، في شِعرها ونثرها، في أدبها، وعلمها، وفلسفتها، في كتب اللغة، وكتب الدين، وكتب العلم على اختلافها، فيما تزيَّن به المساجد، وفيما تجمَّل به المنازل.

قد يوجد فيها بعض الملاحدة أو الشُّــكَّاك، ولكنهم يمثلون الشذوذ الذي يثبت القاعدة ولا ينفيها، ومع هــذا تجد نضح هذه الثقافة الربانية عليهم، أحبُّوا أو كرهوا.

الأخلاقية: وللعنصر الأخلاقي فيها مــكان رحيب، وأثر عميق، برز ذلك العنصر حتى في الجاهلية ذاتها، كما نلمسه في شعر حاتم الطائي، وعروة بن الورد، وعنترة العبسي[1]، وغيرهم.

(١) انظر بعض أشعار هؤلاء في ديوان الحماسة لأبي تمام.

QaradawiBooks.com

ثم جاء الإسلام، فعمَّق هذا العنصر أيما تعميق، ووسَّعه أبلغ توسعة، وربط الأخلاق بأهداف أرحب وأرقى، وحوافز أنبل وأزكى، ووصلها بفكرة الإلزام والجزاء، جزاء الدنيا وجزاء الآخرة، وحرَّرها من غلو الجاهلية وغلوائها، ورفع الأخلاق مكانًا عليًّا حين جعلها غاية الرسالة: «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**»[(١)]، ونـدَّد بالعلم الذي لا يثمر خُلُقًا ولا سلوكًا حسنًا.

وفصَّل آدابًا للمعلِّم والمتعلِّم، والقارئ والسامع، والباحث والمناظر، بل آدابًا لكلِّ شيء في الحياة، من أدب المائدة إلى بناء الدولة.

واعتبر الإسلام الأخلاق ثمرة الإيمان الصادق، والتعبُّد الخالص، وإلا كان فساد الخلق دليل فساد الإيمان، أو فساد العبادة؛ ولهذا كان من أخلاق المنافق: أنه «**إذا حدَّث كذب، وإذا وَعَدَ أخلَف، وإذا اؤتمن خان، وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فجر**»[(٢)].

ولا تعترف هذه الثقافة بتجزئة الأخلاق: أخلاق لمعاملة المسلمين، وأخرى لغير المسلمين، فالخير خير للجميع، والشرُّ شرٌّ على الجميع، والحلال حلال للكلِّ، والحرام حرام على الكلِّ، لا كما جاء في توراة اليهود المحرفة، من تحريم الربا إذا كان بين الإسرائيليين بعضهم وبعض، أما مع غير الإسرائيليين، فلا بأس به ولا حرج فيه.

---

(١) رواه أحمد (٨٩٥٢)، وقال مخرِّجوه: صحيح. والبخاري في الأدب المفرد في حسن الخلق (٢٧٣)، والحاكم في تواريخ المتقدمين (٦١٣/٢)، وصحَّحه على شرط مسلم، ووافقه الذهبي، وصحَّحه الألباني في الصحيحة (٤٥)، عن أبي هريرة.

(٢) متفق عليه: رواه البخاري (٣٤)، ومسلم (٥٨)، كلاهما في الإيمان، عن عبد الله بن عمرو.

QaradawiBooks.com

كما لا تعترف هذه الثقافة بذلك المبدأ الخطر الشرير: أن الغاية تبرر الوسيلة. بل هي لا تؤمن إلا بالوسيلة النظيفة للغاية الشريفة، ولا تصل إلى الحقِّ بالخوض في الباطل. فإن الله تعالى طيِّب لا يقبل إلا طيِّبًا.

ومن ثم لا انفصال في ثقافة الإسلام بين الأخلاق والعلم، ولا بين الأخلاق والعمل، ولا بين الأخلاق والاقتصاد، ولا بين الأخلاق والسياسة، ولا بين الأخلاق والحرب.

الإنسانية: ومن خصائص هذه الثقافة: الإنسانية. فلحمتها وسداها: احترام الإنسان، ورعاية فطرة الإنسان، وكرامة الإنسان، وحقوق الإنسان، فهي تقوم على اعتبار أن الإنسان «مخلوق مكرم» من ربِّه: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠]، وأن الله جعله في الأرض خليفة، وأنه تعالى سخر له ما في السماوات وما في الأرض جميعًا منه، وأسبغ عليه نعمه ظاهرة وباطنة.

وهي تقوم على تكريم الإنسان من حيث هو إنسان، بغضِّ النظر عن جنسه أو لونه، أو لغته أو موطنه، أو طبقته، بل عن دينه نفسه، فهو مكرَّم بإنسانيته قبل ديانته. ومن المواقف الرائعة ما رواه البخاري، عن النبي ﷺ أنه قد مرت عليه جنازة ميت وهو جالس، فقام لها واقفًا، فقيل له: إنها جنازة يهودي؟ فقال: «**أليست نفسًا؟**»[(١)]. بلى، ولكل نفس في الإسلام حرمة ومكان[(٢)].

(١) متفق عليه: رواه البخاري (١٣١٢)، ومسلم (٩٦١)، كلاهما في الجنائز، عن سهل بن حنيف وقيس بن سعد.

(٢) انظر كتابنا: الخصائص العامة للإسلام صـ٥٧ ـ ١٠٣، خصيصة: الإنسانية، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط٧، ١٤٣٤هـ ـ ٢٠١٣م.

QaradawiBooks.com

العالمية: وما دامت ثقافة لكلِّ إنسان، فلا غرو أن تكون ثقافة عالمية المنزع، والوجهة، وقد عملت على تقريب الفوارق بين بني الإنسان، تلك التي فرقت البشر قديمًا وحديثًا، ولهذا اشترك فيها عرب وعجم، بيض وسود، أغنياء وفقراء، ملوك وسوقة، مسلمون ونصارى ويهود ومجوس، ولا تنافي بين انتماء هذه الثقافة إلى العروبة والإسلام من ناحية، ووصفها بالعالمية من ناحية أخرى. فهي ـ كما قلنا ـ عالمية النزعة والوجهة، مفتوحة لكلِّ الجماعات البشرية، غير مغلقة على نفسها، ولا متعصِّبة ضدَّ غيرها، مثل الثقافة اليهودية المنغلقة، التي تقوم على تمجيد جنس خاص، وشعب معين، حتى وصفت الله سبحانه بأنه «رب إسرائيل»، واعتبرت الشعب الإسرائيلي وحده ـ كجنس ـ شعب الله المختار.

أما ثقافتنا، فهي وإن كتبت بالعربية، وانطلقت من الإسلام، فالإسلام نفسه عالمي الرسالة، من أول يوم، جاء يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ﴾ [البقرة: ٢١]، وغيرها. لا «يا أيها العرب»، ويدعو إلى الله ﴿رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾ [الفاتحة: ٢]، وغيرها. لا «رب المسلمين ولا رب العرب وحدهم». ويعلن أن دعوته عامة لا خاصة: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

التسامح: ومن دلائل هذه العالمية وجود خصيصة «التسامح» فيها، برغم ظهور العنصر الديني فيها وغلبته عليها، ولكن الدين الذي قامت عليه، يؤكد الإيمان بحقيقتين أساسيتين على غاية من الأهمية، لتأثيرهما في فكر الإنسان وسلوكه، وعلاقاته مع الآخرين، وهما:

الأولى: أن اختلاف البشر في الأديان وغيرها واقع بمشيئة الله تعالى المرتبطة بحكمته، ولا يملك أحد أن يرد مشيئة الله ويغيِّر سننه في

QaradawiBooks.com

الكون. يقول تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۝ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨، ١١٩]. قال المفسرون: أي وللاختلاف والتنوع خلقهم.

الثانية: أن حسابهم على ما ضلوا فيه أو انحرفوا، إنما هو إلى الله يوم القيامة، وليس إلى الناس اليوم، وفي هذا يقول الله لرسوله في شأن المخالفين: ﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ﴾ [الشورى: ١٥].

ولهذا وسعت الثقافة الإسلامية في رحابها الفسيحة: الأديان المختلفة، والأجناس المختلفة، والألوان المختلفة، واللغات المختلفة، ولم تضِق بدين، ولا عرق ولا لون ولا لسان.

وكانت هذه الثقافة تجسِّد «التنوع» في إطار «الوحدة»، ولا غرو أن عاش في ظلِّها اليهود والنصارى والمجوس وغيرهم من أهل الملل والنحل، غير مضيَّق عليهم في عقائدهم أو عباداتهم وشعائرهم. لهم ذمة الله وذمة رسوله، وذمة جماعة المسلمين، وهذا أصل كلمة «أهل الذمة» التي ينفر بعض الناس منها؛ لأنهم لا يعرفون أصلها ولا مفهومها.

ولم تعِش هذه الأديان والعروق المختلفة على هامش الحضارة الإسلامية، بل ساهمت في شتى مجالات هذه الحضارة.

ولم يفرض الإسلام على غير المسلمين الذين يعيشون في كنفه وفي ظلال حضارته: أن يلزمهم بأحكام شريعته فيما يتعلق

QaradawiBooks.com

بخصائصهم الدينية، مثل: الزواج والطلاق ونحوها من شؤون الأسرة، أو ما يسمى «الأحوال الشخصية»، وجاء عن الصحابة في ذلك: اتركوهم وما يدينون[١].

بل ذهب بعض فقهاء المسلمين إلى أننا لا نفرض عليهم قوانيننا الجنائية، إلا إذا رضوا بها، واستدلوا في ذلك بقول الله تعالى: ﴿فَإِن جَآءُوكَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُمۡ أَوۡ أَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡۖ وَإِن تُعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ فَلَن يَضُرُّوكَ شَيۡـٔٗاۖ وَإِنۡ حَكَمۡتَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢].

قارن هذا بما تفعله اليوم بعض دول الحضارة الغربية، التي تفرض على المسلمين أن يخالفوا دينهم جهرة، وأن يُعرضوا عن أحكام شرعهم وأوامر ربهم علانية، إذ لا تتسع الفلسفة القائمة، التي انبثقت عنها الأنظمة والقوانين، لفئات تخالف الأغلبية في عقائدها وقيمها وأحكامها.

ولهذا يجد المسلم الملتزم بدينه حرجًا في أنظمة الزواج والطلاق والميراث التي لا تتفق مع أحكام شريعته، ويفرض عليه القانون أن يطيعها ويضرب بشريعته عرض الحائط.

ومثل ذلك بعض الأنظمة والتقاليد التي تتصل باللباس والزي والزينة وبعض الممارسات الرياضية، فبعض المدارس في فرنسا مثلًا تفرض على الطالبة المسلمة أن تخلع حجابها، وهو فرض عليها من ربها.

وكثير من المدارس ـ إن لم يكن كلها ـ تفرض على الفتاة المسلمة السباحة في مسابح مشتركة بين الذكور والإناث، في حين يحرم دينها عليها ذلك.

(١) ذكره ابن الهمام في فتح القدير (٣٦٢/٩)، نشر دار الفكر.

QaradawiBooks.com

وكذلك ضاقت فرنسا بإنشاء كلية أوروبية للدراسات الإسلامية لتخريج أئمة ووعاظ للجاليات الإسلامية الكبيرة من داخل أوروبا شرقها وغربها[١].

هذا مع أن الإسلام لا يضيِّق على غير المسلم فيما يعتقد أنه حلال، ولو لم يكن واجبًا في دينه، مثل: أكل الخنزير، وشرب الخمر. فالإسلام لا يمنع غير المسلم أكل الخنزير وهو من الأطعمة المحرمة في الإسلام بنصِّ القرآن. كذلك شرب الخمر، وهي أم الخبائث في الإسلام، ومع هذا لا يضيق على النصراني الذي أحلَّ له دينه أكل الخنزير وشرب الخمر، مع أنه لو ترك أكل ذلك الخنزير وشرب الخمر هذه، لم يكن عليه أي حرج في دينه.

ومع هذا بلغت سماحة الإسلام إلى هذه الدرجة، حتى إن بعض أئمة المسلمين ومذاهبهم ـ وهم الحنفية ـ يرون أن مَن أتلف خنزيرًا أو خمرًا لنصراني، وجب عليه أن يضمن له قيمته[٢].

هذه هي سماحة الثقافة الإسلامية ومرونتها واتساعها للأنواع والألوان المختلفة، مع أن هذه الثقافة أو الحضارة أو الأمة كلها قائمة على أساس من العقيدة والدين.

التنوع: ومن خصائص هذه الثقافة «التنوع»، فهي ليست مجرد ثقافة دينية لاهوتية، كما يتصور بعضهم. إنها ثقافة واسعة متنوعة، فيها الدين

(١) امتنعت السفارات الفرنسية في البلاد العربية ـ بأمر من وزارة الخارجية ـ عن إعطاء أي تأشيرة للعلماء والدعاة الذين دُعوا لحضور حفل افتتاح الكلية، كما رفضت وزارة الداخلية إعطاء تأشيرات دخول لأبناء أوروبا الشرقية، الذين رغبوا في الدراسة بالكلية، مع مسيس حاجة شعوبهم إلى ذلك.

(٢) بدائع الصنائع (١٦٧/٧)، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٤٠٦هـ ـ ١٩٨٦م.

QaradawiBooks.com

بفروعه المتعددة، واللغة والأدب والفلسفة، والعلوم الطبيعية والرياضية، والعلوم الإنسانية، والفنون المختلفة.

فيها فقه أبي حنيفة ومدرسة الرأي، وفقه مالك ومدرسة الأثر، فيها أصول الشافعي، وكلام الأشعري، وتفسير الطبري، ورواية البخاري، وأدب الجاحظ، ومعجم الخليل، ونحو سيبويه، وبلاغة عبد القاهر، وطب ابن سينا، وشعر المتنبي، ومقامات الحريري، وبصريات ابن الهيثم، ورياضيات البيروني، وتصوف الغزالي، وفلسفة ابن رشد، وتحليل ابن خلدون، وخط ابن مقلة، وألحان الموصلي.

فيها ابن حنبل من العراق، وابن تيمية من الشام، وابن طفيل من الأندلس، وابن أبي زيد من تونس، وابن العربي من المغرب، وابن حجر من مصر، وابن الوزير من اليمن، والشيرازي من إيران، والزمخشري من خوارزم، والدهلوي من الهند، وجلال الدين الرومي من تركيا.

فيها سلفية ابن تيمية، وصوفية ابن عربي.

فيها ظاهرية ابن حزم، ومقاصدية الشاطبي.

فيها عقلانية الفلاسفة، والتزام الفقهاء.

فيها اجتهاد المجددين، وتزمت المقلدين.

فيها الكتب المقروءة التي امتلأت بها المكتبات، والصور المشهودة التي ازدانت بها الجوامع والمدارس والقصور «الأموي في دمشق، والحمراء في الأندلس، والأزهر في مصر، والسلطان أحمد في إستانبول، وتاج محل في الهند».

إنه التنوع الشامل أو الشمول المتنوع.

QaradawiBooks.com

ومما ينبغي التنبيه عليه هنا: أن تراثنا الثقافي ـ لشموله وتنوعه وواقعيته ـ نراه يحوي من المفردات الثقافية ما لا يصح أن يكون مصدرًا لتوجيه عموم الأمة، وتثقيف ناشئتها بنين وبنات.

فنحن نرى في هذا التراث:

صلاح أهل السلوك، وخلاعة أهل البطالة.

نرى فيه: زهديات أبي العتاهية وخمريات أبي نواس.

نرى فيه: مرثيات الخنساء ومجون ابن أبي ربيعة.

نرى فيه: «نهج البلاغة»، و«ألف ليلة وليلة».

نرى فيه: صوفية الجنيد الملتزمة، وشطط الحلاج وابن سبعين!

نرى فيه: استقامة أهل الاتباع، وانحراف أهل الابتداع.

ونرى فيه: مقولات الفرق المختلفة من أهل الملة، والفرق المنشقة عن الملة.

هذه الجوانب من التراث لا نستطيع أن ننكرها، ولا أن نحذفها، وهي مجال لدراسة المتخصصين، وموازناتهم العلمية، كما أنها مجال لقراءات الخاصة، الذين لا يخشى عليهم من التأثُّر بشططها وتطرفاتها.

ولكن الذي يجب أن نعول عليه في التثقيف والتوعية، وفي التعليم والتربية: هو الثقافة المعتدلة، المعبِّرة عن رسالة الأمة، وعن هويتها ومقوماتها وخصائصها الذاتية. والتي تقتضينا أن ننتقي أفضل ما في تراثنا، ونأخذ من كلِّ شيء أحسنه، كما قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ١٧، ١٨].

QaradawiBooks.com

الوسطية: يكمل خصيصة «التنوع» خصيصة أخرى هي «الوسطية» أو «التوازن». فهذه الثقافة تمثل المنهج الوسط، للأمة الوسط، بين إفراط الأمم المختلفة وتفريطها. ومع أن الطرفين قد يوجدان داخلها، إلا أن الصبغة العامة لها، والطابع الغالب عليها هو الوسطية، التوازنية، المستمدة من وسطية الإسلام، ووسطية أمته: ﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة: ١٤٣].

تجد هذا واضحًا في الوسطية المتوازنة: بين العقل والوحي، بين المادة والروح، بين الحقوق والواجبات، بين الفردية والجماعية، بين الإلهام والالتزام، بين النص والاجتهاد، بين المثال والواقع، بين الثابت والمتحول، بين استلهام الماضي والتطلع إلى المستقبل.

التكامل: ومن خصائص هذه الثقافة أيضًا: التكامل، التكامل فيما بين بعضها وبعض، فالثقافة اللغوية تخدم الثقافة الدينية، وهذه تغذي الثقافة الإنسانية، وكل هذه تستفيد من الثقافة العلمية.

ومثل ذلك تكاملها مع الثقافات الأخرى، فهي لا تدعي أنها تنشئ كلَّ شيء من عدم، وتبدأ رحلة الثقافة من الصفر، بل أعلنت نصوصها المقدسة أنها جاءت متمِّمة لما كان قبلها لا مبتكرة، مكمِّلة للبناء الذي بدأه رسل الله من قبل، مصحِّحة للمسيرة التي داخلها بعض التحريف أو الانحراف. ولهذا قال رسولها ﷺ: «**إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق**»[1]. فهو متمم لا مبتدئ، ومكارم الأخلاق لم تقطع جذورها من الدنيا، بل هي موجودة، وإن كان فيها قصور أو نقص، ومهمته أن يتمِّمها ويكملها.

(١) سبق تخريجه صـ٢٨.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وموقف الثقافة الإسلامية مع الثقافات الأخرى كموقف نبوة محمد ﷺ مع النبوات الأخرى، والذي عبَّر عنه الحديث الصحيح: «**إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي، كمثل رجل بنى بيتًا فأحسنه وأجمله، إلا موضع لبنة من زاوية، فجعل الناس يطوفون به، ويعجبون له، ويقولون: هلَّا وضعت هذه اللبنة؟! فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين**»[(١)].

ومقتضى هذا التكامل الذي اتصفت به الثقافة الإسلامية، أنها لا تجد مانعًا شرعيًّا يمنعها من اقتباس الحكمة، والتماس العلم النافع، والعمل الصالح عند غيرها، ولو كانوا خصومها. وفي الحديث الذي رواه الترمذي وابن ماجه: «**الكلمة الحكمة ضالة المؤمن، فحيث وجدها فهو أحق بها**»[(٢)].

وقد طلب الرسول الكريم من أسرى المشركين الذين يحسنون الكتابة، ولم يتيسر لهم دفع الفدية في غزوة «بدر»: أن يفدوا أنفسهم بتعليم كل واحد منهم عشرة من أولاد المسلمين الكتابة حتى يحذقوا[(٣)]. فتعلم منهم عدد، كان منهم زيد بن ثابت كاتب الوحي، وأحد علماء الصحابة رضي الله عنهم[(٤)].

الاعتزاز بالذات: ومن خصائص هذه الثقافة: أنها تعتز بذاتيتها وتميزها عن غيرها، بمصادرها الربانية، وغاياتها الإنسانية، ووجهتها

(١) متفق عليه: رواه البخاري في المناقب (٣٥٣٥)، ومسلم في الفضائل (٢٢٨٦)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه الترمذي في العلم (٢٦٨٧)، وقال: حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه. وابن ماجه في الزهد (٤١٦٩)، عن أبي هريرة، وضعفه الألباني في ضعيف الترمذي (٥٠٦). ولكن معناه صحيح بالإجماع.

(٣) رواه ابن سعد في الطبقات (٢٢/٢)، عن الشعبي مرسلًا.

(٤) انظر كتابنا: الثقافة العربية الإسلامية بين الأصالة والمعاصرة صـ ٢٦ ـ ٣٣، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط١، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م.

QaradawiBooks.com

العالمية، وصبغتها الأخلاقية، وأنها وقفت ضد العصبيات الجاهلية، من التمييز بين بني الإنسان بعروقهم أو بألوانهم، أو بأنسابهم، أو بألسنتهم، أو بطبقاتهم، وأنها ضمت في رحابها شعوبًا ذابوا في كيانها، وكونوا جميعًا نسيج أمتها.

واعتزاز هذه الثقافة بذاتيتها أو أصالتها، جعلها ترفض أن تذوب في غيرها، وتفقد خصائصها ومكوناتها، وتتنازل عن رسالتها العالمية الهادية، لتسير في ركب «التغريب» أو «العولمة» أو «التطبيع». فوضعها أبدًا: أن تكون رأسًا لا ذيلًا، وسيدًا لا تابعًا. وطريقها دائمًا هو: ﴿ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ﴾ [الفاتحة: ٦]، صراط الذين أنعم الله عليهم غير المغضوب عليهم، ولا الضالين.

* * *

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الانفتاح في ثقافتنا

- تمهيد.
- دلائل الانفتاح في الثقافة الإسلامية.
- المسلم يلتمس الحكمة من أي وعاء.
- ثقافة ترحب بالحوار.
- ثقافة تؤمن بالتجديد.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

تمهيـــد

يتعين علينا هنا أن نجيب عن هذا السؤال الكبير حول طبيعة ثقافتنا: أهي ثقافة منغلقة متقوقعة على نفسها كما قد يفهم من اعتزازها بذاتها، أم هي ثقافة منفتحة، تأخذ كما تعطي؟

الاعتزاز بثقافتنا لا ينافي الانفتاح بضوابطه:

وأود أن أقرر هنـــا حقيقة مهمة، قد تخفى أو تلتبـــس على كثيرين، وهي: أن اعتزازنـــا بثقافتنا، المعبـــرة عن هويتنا، ورفضنـــا الذوبان في الآخرين، ومقاومة تيـــار «العولمة» أو «التطبيـــع» أو «التغريب» الغازي لعقل الأمة وضميرها، لا يعني «الانغلاق» عن ثقافات الآخرين، وإقفال الأبواب كلها دون أي استفادة مما لديهم مما قد ينفع من حق.

فقد جرت ســـنة الله أن يتخلل الباطل بعض الحق الذي لا ينتبه إليه إلا أولو البصائر، الذي يستلونه استلالًا من بين ركام الباطل، ولا يمنعهم اتصاله أو امتزاجه بالباطل أن يقتبسوه وينتفعوا به.

* * *

نسخة مجانية
غير مرخصة للطباعة

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

غير مرخصة للطباعة

دلائل الانفتاح في الثقافة الإسلامية

وبهذا نقرر أن الثقافة الإسلامية ليست ثقافة منغلقة، بل هي لأصالتها وقوتها منفتحة على الثقافات بضوابطها، كما أن المسلم ـ مع اعتزازه بثقافته ورسالته ـ منفتح على الثقافات الأخرى، يأخذ منها ويدع، وفق معايير راسخة عنده.

ولهذا الانفتاح في ثقافتنا مظاهر تنبئ عنه، ودلائل تدل عليه، من أصول ديننا، ومصادر شريعتنا، وليس مجرد دعوى تدعى، ليتباهى بها. وسنذكر هنا من هذه الأدلة ما يكفي لتأصيل هذه المقولة من الناحية الشرعية.

القرآن مصدِّق مهيمن:

ونحن إذا نظرنا إلى القرآن وجدناه جاء ـ كما قرَّر هو ـ مصدقًا لما بين يديه من الكتاب، ومهيمنًا عليه: ﴿ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ﴾ [المائدة: ٤٨].

على معنى أن القرآن جاء مؤكِّدًا لما جاءت به الكتب السابقة من الحقائق والعقائد والأصول التي لا تختلف فيها الأديان، وهي التي نزل

QaradawiBooks.com

فيها قوله تعالى: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِ﴾ [الشورى: ١٣].

كما جاء القرآن مهيمنًا على تلك الكتب، أي مصحِّحًا لما وقع فيها من تحريفات وأخطاء، ونافيًا ما اعتراها من أباطيل، ومن سوء التأويل.

ومن هيمنته عليها أنه جاء متممًا لها، مرتقيًا بالبشرية إلى أبلغ مدى تستطيع الوصول إليه، في زمن الرسالة الخاتمة، التي ليس بعد نبيها نبي، ولا بعد كتابها كتاب.

ومن هنا جاء الإسلام في أصل رسالته ليتمم ويبني، لا ليلغي ويهدم، إلا ما كان من باطل. وفي الحديث الشريف: «**إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق**» أو «**مكارم الأخلاق**»[1].

ولا غرو أن فرض الإسلام على المسلم أن يؤمن بكل كتاب أنزل، وبكل نبي أرسل، ولا يُقبل إيمانه، ولا يصح إسلامه إلا بهذا: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيۡهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّن رُّسُلِهِۦۚ وَقَالُواْ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ غُفۡرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيۡكَ ٱلۡمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

الرسول أبقى الصالح من أحوال الجاهلية:

ولقد علمنا من سيرة الرسول ﷺ، ومن سنته: أنه لم يلغِ كل ما كان عليه العرب قبل الإسلام، بل ألغى الفاسد، وأبقى على الصالح من أعرافهم وعقودهم ومعاملاتهم.

(١) سبق تخريجه صـ٢٨.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

حتى إننا نجد عبادة مثل الحج، أبقى الإسلام على الكثير من مناسكها التي توارثها العرب من ملة إبراهيم، مثل الطواف والسعي بين الصفا والمروة وغيرها، وحذف منها ما يخالف عقائد الإسلام وقيم الإسلام، مثل قولهم في التلبية: لبيك لا شريك لك، إلا شريكًا هو لك، تملكه وما ملك. يعنون الأصنام.

كما أبطل الطواف بالبيت في حالة العري، كما كان بعض العرب يفعلون، يقولون: لا نطوف ببيت الله بثياب عصينا الله فيها!

وفي الزواج كان عند العرب أربعة أنواع من الأنكحة، ذكرها البخاري، عن عائشة[1]، فأبطل الإسلام ثلاثة منها، وأبقى واحدًا، هو الذي عليه عمل المسلمين إلى اليوم.

وفي البيع كانت لهم أنواع من البيوع فيها كثير من الغرر والجهالة، وتفضي إلى النزاع، فنهى عنها النبي ﷺ، وأقرَّ ما عداها من البيوع.

ونجد النبي ﷺ، يكرم ابنة حاتم الطائي[2]؛ لأجل ما عرف عن أبيها من جود وقِرى للضيف، ومكارم الأخلاق.

مشروعية اقتباس ما لدى الأمم:

ومما له دلالة هنا: ما ذكره العلماء من جواز اقتباس ما عند الآخرين من أعراف وأعمال وأنظمة ومشروعات يمكن أن تنفع المسلمين، ما دامت لا تتعارض مع عقيدتهم أو شريعتهم أو قيمهم الأخلاقية.

(١) رواه البخاري في النكاح (٥١٢٧).

(٢) رواه أحمد (١٩٣٨١)، وقال مخرجوه: بعضه صحيح. وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٩٧١٩): رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح غير عباد بن حبيش وهو ثقة. عن عدي بن حاتم.

QaradawiBooks.com

فقد اقترح بعض الصحابة على الرسول أن يتَّخذ خاتمًا. كما يفعل الملوك وغيرهم، يختمون به كتبهم ورسائلهم، وذلك حين أراد أن يكتب إلى أناس من الأعاجم، فقيل له: إنهم لا يقبلون كتابًا إلا عليه خاتم! فاتخذ خاتمًا من فضة نقشه «محمد رسول الله»[١].

وقالوا: إن سلمان اقترح عليه حفر الخندق في غزوة الأحزاب، فعمل بمشورته، وحين رأته قريش وغطفان قالوا: إن هذه لمكيدة ما كانت العرب تكيدها[٢].

واقتُرِح على عمر تدوين الدواوين، تأسيًا بأمم الحضارة، فاستجاب لما اقترح عليه[٣].

ومثل ذلك استجابته ﷺ، لعمل تاريخ للمسلمين، فاختار أن تكون بدايته الهجرة النبوية، بدء إقامة المجتمع المسلم وتكوين الدولة الإسلامية.

شرع من قبلنا:

ومما يذكر هنا: ما قرَّره الأصوليون حول «شرع من قبلنا»، حين يذكر في القرآن أو السنة: هل يُعتبر دليلًا يُستنبط منه الحكم الشرعي أوْ لا؟ والقول الراجح: إنه دليل معتبر ما لم يأتِ في شرعنا ما ينسخه. وإلا فلماذا ذكره القرآن؟

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في العلم (٦٥)، ومسلم في اللباس (٢٠٩٢)، عن أنس.

(٢) سيرة ابن هشام (٢٢٤/٢)، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، نشر شركة مكتبة ومطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط٣، ١٣٧٥هـ ـ ١٩٥٥م.

(٣) انظر: سيرة عمر بن الخطاب لابن الجوزي صـ ٧٥ ـ ٧٩، نشر دار إحياء علوم الدين، دمشق.

QaradawiBooks.com

ومن هنا استدلوا على ضرورة اتصاف المرشَّحين للأعمال والوظائف بالقوة والأمانة معًا، أخذًا مما ذكره القرآن من قول ابنة الشيخ الكبير: ﴿قَالَتْ إِحْدَاهُمَا يَا أَبَتِ اسْتَأْجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الْأَمِينُ﴾ [القصص: ٢٦].

وكذلك استدلوا بخرق الخضر للسفينة التي كان يملكها مساكين يعملون في البحر، أراد أن يعيبها بذلك، فتنجو من غصب الملك لها[١]، وهذا ما استنبطوا منه قاعدة شرعية مهمة جدًّا، وهي قاعدة ارتكاب أخف الضررين.

وفي سورة يوسف مثلًا: أحكام كثيرة، استنبطها منها العلماء، كما في قوله تعالى على لسان يوسف: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدْتُمْ فَذَرُوهُ فِي سُنْبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِمَّا تَأْكُلُونَ﴾ [يوسف: ٤٧].

قال الإمام القرطبي: «هذه الآية أصل في القول بالمصالح الشرعية، التي هي حفظ الأديان والنفوس والعقول والأنساب والأموال، فكل ما تضمن تحصيل شيء من هذه الأمور فهو مصلحة، وكل ما يفوِّت شيئًا منها، فهو مفسدة، ودفعه مصلحة. ولا خلاف أن مقصود الشرائع إرشاد الناس إلى مصالحهم الدنيوية ليحصل لهم التمكُّن من معرفة الله تعالى وعبادته، الموصلتين إلى السعادة الأخروية»[٢].

كما استنبط العلماء من قول يوسف للملك: ﴿اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٥]. مشروعية طلب الإنسان للولاية إذا علم أنه

(١) يشير إلى قوله تعالى على لسان العبد الصالح: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ [الكهف: ٧٩].

(٢) تفسير القرطبي (٢٠٣/٩)، تحقيق أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، نشر دار الكتب المصرية، القاهرة، ط٢، ١٣٨٤هـ ـ ١٩٦٤م.

QaradawiBooks.com

لها أهل، وأن لا أحد يقوم مقامه في العدل والإصلاح، وتوصيل الفقراء إلى حقوقهم، فرأى ذلك فرضًا متعينًا عليه[١].

كما أخذ ابن تيمية وغيره من الآية الكريمة جواز تولي المسلم بعض المناصب والأعمال لسلطان كافر أو ظالم، إذا كان يرى في نفسه أنه قادر على إقامة العدل، وإزالة الظلم، ومقاومة الفســاد، أو على الأقل تقليل شرِّهما، بقدر المستطاع[٢].

* * *

(١) انظر: القرطبي (٩/٢١٥ ـ ٢١٧).

(٢) مجموع الفتاوى لابن تيمية (٣٠/٣٥٧ ـ ٣٦٠)، تحقيق عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، نشر مجمع الملك، المدينة المنورة، ١٤١٦هـ ١٩٩٥م.

QaradawiBooks.com

المسلم يلتمس الحكمة من أي وعاء خرجت

إن المسلم ليس ـ كما يتصوَّره أو يصوره بعض الناس ـ إنسانًا متقوقعًا منغلقًا على نفسه، قد وضع على عينه غشاوة فلا يرى شيئًا خارج محيطه، وسدَّ أذنيه فلا يسمع إلا لشيوخه، وأغلق على عقله بقفل محكم، فلا يفتحه لشيء، غير ما لقنه، وإن قام عليه برهان العقل، أو دليل الحسّ، أو سلطان الواقع.

إن المسلم الحقَّ قد تعلم من كتاب الله ومن سنة رسول الله أن الحق يلتمس في آفاق الكون وفي أغوار النفس، أو في عِبر التاريخ، كما قال تعالى: ﴿ وَفِي ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۝ وَفِيٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾ [الذاريات: ٢٠، ٢١]، ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [فصلت: ٥٣]، ﴿ أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ ﴾ [الأعراف: ١٨٥].

كما تعلَّم أن الحقَّ قد ينطق به غير المؤمنين، ويؤخذ عنهم، بغضِّ النظر عمَّن قاله، فالعبرة بما قيل، لا بمَن قال.

وقد نقل القرآن بعض كلمات تعبِّر عن الحقيقة من أناس لم يكونوا مؤمنين، كما رأينا في قول ملكة سبأ في وصف المستعمرين إذا دخلوا

بلدًا: ﴿قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَٰلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ [النمل: ٣٤]. فهي تريد: إذا دخلوها فاتحين مستعمرين، فهم يفسدون البلاد ويذلُّون العباد.

ونقل القرآن عن امرأة العزيز قولها حين حقَّق معها الملك في قضية يوسف: ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [يوسف: ٥٣]. حتى إن بعض المفسرين استكثروا ذلك عليها، وقالوا: إنه من كلام يوسف. والسياق قاطع بأنه من كلام المرأة.

وقد علَّمنا القرآن الكريم من خلال قصصه التي يسوقها عبرة لأولي الألباب: أن الإنسان من قديم الزمان تعلَّم من غراب، وأن نبي الله سليمان استفاد من هدهد، بعض ما لم يكن يعلم.

ففي قصة ابني آدم، التي رأينا فيها الأخ الشرير، يقتل أخاه الخيِّر ظلمًا وعدوانًا، ثم يحار في دفن جثته، ﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَىٰ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي﴾ [المائدة: ٣١]. وبهذا تعلم الإنسان كيفية دفن الموتى من الغراب.

وفي قصة سليمان مع ملكة سبأ: ﴿فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ ۞ لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَاذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ ۞ فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ [النمل: ٢٠ ـ ٢٢]. وهكذا تلقى سليمان عليه السلام هذه المعلومة من هذا الطائر «الهدهد»، وأصبحت مثلًا لكل كبير يتعلَّم من صغير، حيث يقول التلميذ لشيخه: لستَ أعظم من سليمان، ولا أنا أقل من الهدهد!

QaradawiBooks.com

والنبي ﷺ قال: «**أصدق كلمة قالها شاعر، كلمة لبيد بن ربيعة: ألا كلُّ شيءٍ ما خلا اللهَ باطلُ**»[١]، وهذا مطلع قصيدة للبيد قالها في الجاهلية.

بل صحَّ أن النبي ﷺ، قال لبعض الصحابة حين أوصاه الشيطان بقراءة آية الكرسي: «**صَدَقَك وهو كذوب**»[٢].

حتى الشيطان يمكن أن يقول الصدق، ويتعلَّم منه المسلم الملتزم إذا عرف صدقه. والمؤمن البصير هو الذي يميِّز الصدق من الكذب، والحقَّ من الباطل، والطيب من الخبيث.

وقد روى الترمذي وابن ماجه من حديث ضعيف: «**الكلمة الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها، فهو أحق الناس بها**»[٣]. والحديث ضعيف الإسناد من غير شك، ولكن معناه صحيح، ومقبول عند المسلمين، ومعمول به.

وقال عليٌّ رضي الله عنه: العلم ضالة المؤمن، فخذوه ولو من أيدي المشركين[٤]. وينطبق هذا أكثر ما ينطبق على نتائج العلوم الطبيعية والرياضية، التي لا تصطبغ عادة بعقائد أصحابها ولا قيمهم ومفاهيمهم عن الإنسان والحياة والكون؛ لأنها قوانين كونية عامة ينتفع بها المؤمن والكافر، ويخضع لسننها البر والفاجر.

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في مناقب الأنصار (٣٨٤١)، ومسلم في الشعر (٢٢٥٦)، عن أبي هريرة.

(٢) رواه البخاري في الوكالة (٢٣١١)، عن أبي هريرة.

(٣) سبق تخريجه صـ٣٧.

(٤) جامع بيان العلم (٦٢١)، تحقيق أبي الأشبال الزهيري، نشر دار ابن الجوزي، السعودية، ط١، ١٤١٤هـ ـ ١٩٩٤م.

QaradawiBooks.com

ومن هنا لم يجد المسلمون حرجًا في عصورهم الذهبية أن يقتبسوا العلوم الكونية، من الطب والتشريع والفلك والفيزياء والكيمياء والرياضيات وغيرها، من أمم الحضارات القديمة، كاليونان والفرس والروم، ولا سيما اليونان[١].

ولا غرو أن استفاد الرسول ﷺ، من أسرى المشركين في غزوة بدر، ممَّن كان يحسن الكتابة منهم في محو أمية عدد من المسلمين في المدينة، وتعليمهم القراءة والكتابة، وجعل ذلك فداءهم من الأسر، وكان من الذين تعلموا على أيدي هؤلاء: زيد بن ثابت كاتب الوحي، وأعلم الصحابة بالفرائض «المواريث»[٢].

كما انتشرت بين المسلمين هذه الحكمة: «اطلبوا العلم ولو بالصين». حتى شاع بين بعض الناس أنها حديث، وما هي بحديث، ولكن معناها صحيح ومقبول لدى الكافة، فالعلم يطلب حيث يوجد، ويطلب من أهله، ولو بأقصى الأرض.

ولهذا رأينا علماء الصحابة مثل عليٍّ وابن مسعود وعائشة وابن عباس وغيرهم يستشهدون بشعر أهل الجاهلية، حتى أنهم يستشهدون به في تفسير القرآن الكريم.

المنافق قد يقول كلمة الحق:

لقد علَّم الإسلام المسلم أن ينظر أبدًا إلى مضمون القول لا إلى قائله، فالمبطل قد يقول الحقَّ، والمحقُّ قد ينطق بالباطل، والكذوب قد يصدق يومًا.

(١) انظر كتابنا: الرسول والعلم صـ ٥٦، ٥٧، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط٢، ١٤٢٧هـ ـ ٢٠٠٦م.

(٢) سبق تخريجه صـ ٣٧.

QaradawiBooks.com

وقد روى أبو داود في «سننه»، عن معاذ بن جبل رضي الله عنه، كلمات مضيئة اقتبسها من مشكاة النبوة. قال فيها: إن المنافق قد يقول كلمة الحق. كما يحذر من زيغات الحكيم، ويحسن بي أن أسوقها لما فيها من الفائدة والعبرة من صحابي وصفه الرسول الكريم بأنه أعلم أصحابه بالحلال والحرام[١]، قال رضي الله عنه: إياكم وما ابتدع، فإن ما ابتدع ضلالة، وأحذركم زيغة الحكيم، فإن الشيطان قد يقول كلمة الضلالة على لسان الحكيم، وقد يقول المنافق كلمة الحق!

قال يزيد بن عميرة راوي هذا الأثر، وكان من أصحاب معاذ: قلت لمعاذ: وما يدريني ـ رحمك الله ـ أن الحكيم يقول كلمة الضلالة، وأن المنافق قد يقول كلمة الحق؟

قال: بلى، اجتنب من كلام الحكيم المشتهرات ـ وفي رواية: المشتبهات ـ التي يقال لها: ما هذه؟ ولا يثنيك ذلك عنه، فإنه لعله أن يراجع، وتلقَّ الحق إذا سمعته فإن على الحق نورًا[٢].

فقوله: وتلقَّ الحقَّ، فإن على الحقِّ نورًا. يعني: وإن صدر من المنافق، فإن النور الذي يكسو الحقَّ، يشير إليه، ويدلُّ عليه، ولا

(١) رواه أحمد (١٣٩٩٠)، وقال مخرجوه: إسناده صحيح على شرط الشيخين. والترمذي في المناقب (٣٧٩١)، وقال: حسن صحيح. وابن ماجه في المقدمة (١٥٤)، والحاكم في معرفة الصحابة (٤٢٢/٣)، وصححه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، قال ابن حجر (٩٣/٧): وإسناده صحيح إلا أن الحفاظ قالوا إن الصواب في أوله الإرسال والموصول منه ما اقتصر عليه البخاري. يعني: «وإن لكل أمة أمينًا وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح». وصحَّحه الألباني في الصحيحة (١٢٢٤)، عن أنس.

(٢) رواه أبو داود في السُّنَّة (٤٦١١)، والحاكم في الفتن (٤٦٠/٤)، وصحَّحه على شرط الشيخين، ووافقه الذهبي، وقال الألباني في صحيح أبي داود (٣٨٥٥): صحيح الإسناد موقوف.

QaradawiBooks.com

يخفى على أولي الألباب، الذين يردُّون كلَّ شيء إلى ما أنزل الله من الكتاب والميزان.

المسلم كالنحلة:

إن المسلم الحقَّ ليس ذَنَبًا أو إمَّعة، يسير وراء الناس حيث ساروا، ويأخذ منهم ما خبث وما طاب، ولكنه يتطلَّع ويتوق ويرنو دائمًا إلى الأحسن من كلِّ شيء، وقد أثنى الله تعالى على المهديين العقلاء المبشَّرين من عباده، فقال: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [الزمر: ١٧، ١٨].

وهذا شأن المسلم مع الثقافات والحضارات، إنه يأخذ أحسن ما فيها، ويضمُّه إلى ما عنده، ويضفي عليه من روحه، ما يفقده جنسيته الأولى، ويغدو جزءًا من منظومة المسلم الثقافية.

إنه أشبه في صلته بالثقافات المتنوعة، بالنحلة، التي تعمل بهُدى وحي ربها إليها، وإلهامه إياها، تتنقَّل بين الأشجار والأزهار، تأكل من كلِّ الثمرات الطيبة، سالكة سبل ربها ذللًا، ثم تمتصُّ ما تأكله وتهضمه وتتمثَّله، ثم تحوِّله إلى شراب يخرج من بطونها مختلفًا ألوانه، فيه شفاء للناس.

وفي الحديث النبوي: «**مثلُ المؤمن مَثَلُ النحلة، لا تأكل إلا طيّبًا، ولا تضع إلا طيّبًا**»[1].

وهكذا يستطيع المسلم الناضج الراسخ في إيمانه وعلمه: أن يقرأ ما شاء من الفلسفات، ويطلع على ما شاء من الثقافات، ومنها الثقافة

(١) رواه النسائي في الكبرى في قيام الليل (١١٢١٤)، وابن حبان في الإيمان (٢٤٧)، وقال الأرناؤوط: إسناده حسن. وصححه الألباني في الصحيحة (٣٥٥)، عن أبي رزين العُقيلي.

QaradawiBooks.com

الغربية الحديثة، ثم يقتبس منها ما يلائـــم عقيدته ومفاهيمه عن الوجود وعن المعرفة وعن القيم، ومـــا يتفق مع نظرته إلى الألوهية وإلى الكون والإنسان والحياة والتاريخ.

فهو يأخذ ما يأخذ عن بينة، ويدع ما يدع على بصيرة.

يســـتطيع المســـلم الحقُّ أن يقتبس ما يراه حقًّا من المنهج الشكِّي لديكارت، ومن مثالية هيجل، ومن مادية ماركس، ومن وضعية كونت، ومن نشـــوئية دارون، ومن تحليل فرويد، ومن مجتمعية دور كايم، ومن واجبية كانـــت، ومن تطورية سبنســـر، ومن حدســـية برغســـون، ومن براغماتية جيمس، ومن عقلانية راســـل، ومن تشـــاؤمية شبنجلر، ومن تفاؤلية توينبي، ومن وجودية سارتر.

يأخذ من هؤلاء ومن غيرهم ما يلائمه، ويَدَع ما لا يلائمه، يُدخِل هذا كله في مصفاة عنده للتنقية والتمييز، فيأخذ ما صفا من كلِّ شوب، ويدع الشـــوائب والرواســـب والكدورات، فموقفه موقف المتخيِّر المميز بين ما يقبله ويعرفه منطق العقـــل، ومنطق الدين، ومنطق العلم، وما لا يقبله ولا يعرفه، فهو يرحِّب بالمعروف، ويُعرض عن المنكر.

إنَّ رفضَنَا للنظرية الكليـــة لبعض هؤلاء، مثـــل دارون أو كونت أو ماركس أو فرويـــد أو دور كايم، لا يعني أن يكـــون كل ما قالوه باطلًا، فليس هذا من طبيعة الأشياء، ولا من سنن الله في البشر؛ ولهذا لا مانع أن يجد المســـلم في هذه النظريـــات بعض ما يفيده في تفســـير بعض القضايا أو حلِّ بعض المشكلات النظرية أو العملية.

إن المسلم إذا بلغ درجة من النضج والرسوخ لا يخشى عليه من أية مذاهب أو فلســـفات يطَّلع عليها، كما لا يخشـــى على السباح الماهر،

غير مرخصة للطباعة
نسخة تجريبية
QaradawiBooks.com

والغواص المتمرس، من نزول البحر أو السباحة فيه. إنما يُخشى فقط على مَن لا يحسن السباحة، أو قليل الخبرة إذا خاض اللجج وهو غير متهيِّئ لملاقاتها.

كما أن السباح البصير ينأى بنفسه عن مواقع الخطر، والدوامات البحرية التي تبتلع مَن يقترب منها، مهما تكن مهارته، فهي كالوحش الفاغر فاه، أشبه بالحيتان الكبيرة وأسماك القرش ونحوها مما لا طاقة للإنسان به.

ومن هنا يستطيع المسلم المتمكِّن والمؤمن القوي أن يقرأ فلسفات الغرب، ويطَّلع على آراء فلاسفته، رغم اختلاف مدارسهم، وتباين توجهاتهم، ويأخذ منها ويَدَع، وفقًا لمسلماته الدينية والعقلية، دون أن يحكم في ذلك هوى متبعًا، أو تقليدًا سائدًا، أو ظنًّا لا يقوم على يقين، ولا يغني من الحق شيئًا.

ليس من الحكمة ولا من الصواب إذنْ أن نرفض ـ باسم الإسلام وبمنطق شريعته ـ الحقيقة؛ لأنها وجدت بين ثنايا الأباطيل، كالذي يرفض كل حكمة أو موعظة وجدت في كتب اليهود أو النصارى، أو وجدت في كتب الفلاسفة الماديين المنكرين للألوهية أو للنبوة أو للبعث، أو غيرهم من الفلاسفة والعلماء أصحاب النظريات المختلفة في تفسير نشأة الكون أو في تفسير السلوك أو في تفسير التاريخ، أو غير ذلك مما يتنافى مع وجهة الدين وفلسفته، أو مع شريعته وأحكامه.

وقد شكا الإمام الغزالي قديمًا من هذه الآفة، آفةِ رد الحق إذا وجد في كتب أهل الباطل، واعتبرها آفة عظيمة: «إذ ظنَّت طائفة من الضعفاء أن ذلك الكلام إذا كان مدونًا في كتبهم، وممزوجًا بباطلهم، ينبغي أن

QaradawiBooks.com

يهجر ولا يذكر، إذ لم يسمعوه أولًا إلا منهم، فسبق إلى عقولهم الضعيفة أنه باطل؛ لأن قائله مبطل، كالذي يسمع من النصراني قول: «لا إله إلا الله، عيسى رسول الله». فينكره ويقول: «هذا كلام نصراني»، ولا يتوقف ريثما يتأمل أن النصراني كافر باعتبار هذا القول، أو اعتبار إنكاره نبوة محمد ﷺ. فإن لم يكن كافرًا إلا باعتبار إنكاره، فلا ينبغي أن يخالف في غير ما هو به كافر، مما هو حق في نفسه، وإن كان أيضًا حقًّا عنده، وهذه عادة ضعفاء العقول، يعرفون الحق بالرجال، لا الرجال بالحق. والعاقل يقتدي بقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه، حيث قال: لا تعرف الحق بالرجال، بل اعرف الحق، تعرف أهله[1].

والعاقل يعرف الحق، ثم ينظر في نفس القول، فإن كان حقًّا قبله سواء كان قائله مبطلًا، أو محقًّا، بل ربما يحرص على انتزاع الحقِّ من أقاويل أهل الضلال، عالمًا بأن معدن الذهب: الرغام ـ التراب ـ ولا بأس على الصراف إن أدخل يده في كيس القلاب، وانتزع الإبريز الخالص، من الزيف والبهرج، مهما كان واثقًا ببصيرته، وإنما يزجر عن معاملة القلَّاب القروي، دون الصيرفي البصير، ويمنع من ساحل البحر الأخرق دون السباح الحاذق، ويصد عن مس الحية الصبي، دون المعزِّم البارع.

ولعمري، لما غلب على أكثر الخلق ظنُّهم بأنفسهم الحذاقة والبراعة، وكمال العقل، في تمييز الحقِّ عن الباطل، والهدى عن الضلالة، وجب حسم الباب في زجر الكافَّة عن مطالعة كتب أهل

(١) المنقذ من الضلال للغزالي صـ ١٥٢، تحقيق الشيخ عبد الحليم محمود، نشر دار الكتب الحديثة، مصر.

QaradawiBooks.com

الضلالة ما أمكن؛ إذ لا يسلمون من الآفة الثانية التي سنذكرها، وإن سلموا عن الآفة التي ذكرناها.

ولقد اعترض على بعض الكلمات المبثوثة في تصانيفنا، في أسرار علوم الدين، طائفة من الذين لم تستحكم في العلوم سرائرهم، ولم تنفتح إلى أقصى غايات المذاهب بصائرهم.

وزعمت أن تلك الكلمات من كلام «الأوائل» ـ الفلاسفة ـ مع أن بعضها من مُولِّدات الخواطر، ولا يبعد أن يقع الحافر على الحافر، وبعضها يوجد في الكتب الشرعية، وأكثرها موجود معناه في كتب الصوفية.

وهب أنها لم توجد إلا في كتبهم، فإذا كان ذلك الكلام معقولًا في نفسه مؤيدًا بالبرهان؛ ولم يكن على مخالفة الكتاب والسنة، فلِمَ ينبغي أن يُهجر، أو يُنكر؟

فلو فتحنا هذا الباب، وتطرقنا إلى أن نهجر كلَّ حقٍّ سبق إليه خاطر مبطل لزمنا أن نهجر كثيرًا من الحقِّ، ولزمنا أن نهجر جملة آيات من القرآن، وأخبار الرسول، وحكايات السلف، وكلمات الحكماء، والصوفية؛ لأن صاحب كتاب «إخوان الصفا» أوردها في كتابه، مستشهدًا بها، ومستدرجًا قلوب الحمقى بواسطتها إلى باطله، ويتداعى ذلك إلى أن يستخرج المبطلون الحق من أيدينا، بإيداعهم إياه في كتبهم.

وأقل درجات العالم: أن يتميز عن العامي الغمر[1]، فلا يعاف العسل وإن وجده في محجمة الحجام، ويتحقَّق بأن المحجمة لا تغير ذات العسل، فإن نفرة الطبع منه، مبنية على جهل عامي، منشؤه أن

(١) رجل غمر: لم يجرب الأمور. مختار الصحاح مادة (غ. م. ر).

QaradawiBooks.com

المحجمة إنما صنعت للدم المستقذر، فيظن أن الدم مستقذر لكونه في المحجمة، ولا يدري أنه مستقذر لصفة في ذاته، فإذا عدمت هذه الصفة في العسل فكونه في ظرفه، لا يكسبه تلك الصفة، فلا ينبغي أن يوجب له الاستقذار.

وهذا وهْم باطل، وهو غالب على أكثر الخلق، فمهما نسبت الكلام، وأسندته إلى قائل حسُن فيه اعتقادهم، قبلوه، وإن كان باطلًا. وإن أسندتَه إلى مَن ساء فيه اعتقادهم؛ ردَّوه، وإن كان حقًّا.

فأبدًا يعرفون الحق بالرجال، ولا يعرفون الرجال بالحق، وهو غاية الضلال!» انتهى من «المنقذ من الضلال»[1].

* * *

(١) المنقذ من الضلال صـ ٥٢ ـ ١٥٥.

غير مرخصة للطباعة
نسخة معدلة

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

ثقافة ترحِّب بالحوار

ولا عجب أن وجدنا ثقافتنا الأصيلة ترحِّب بالحوار مع الآخر، بل تدعو إليه ولا تخاف منه.

ومن قرأ القرآن ألْفاه كتابًا حافلًا بالحوار على مستويات شتى.

حوار بين رسل الله عليهم السلام وأقوامهم، كما نجد ذلك جليًّا في حوار إبراهيم مع قومه في سورة الأنعام، وفي سورة الأنبياء، وفي سورة الشعراء، وفي حواره لأبيه في سورة مريم.

وكما نجد ذلك في حوار شعيب لقومه في سورة هود، وكذلك في سورة الأعراف والشعراء، وغيرها.

ومثل ذلك في حوار كليم الله موسى مع فرعون في سورة الشعراء على وجه الخصوص، وفي سور أخرى.

وأجلُّ وأكبر من ذلك كله: حوار الله تعالى مع خلقه، كما يتجلى ذلك في ردِّ القرآن على أباطيل المشركين، وعلى شبهاتهم، وإقامة البراهين العقلية على ما ينكرونه من الوحدانية والبعث، وإرسال الرسل مبشرين ومنذرين.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وأكثر من ذلك: الحوار المباشر بين الله تعالى وبين ملائكته عندما أراد سبحانه خلق آدم واستخلافه في الأرض: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ۝ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِي بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝ قَالُواْ سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ۝ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّيٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠ ـ ٣٣].

بل أخطر من ذلك: حوار الله جلَّ شأنه، مع شرِّ خلقه إبليس، كما تجلى ذلك في سورة الأعراف، وسورة الحجر، وسورة «ص»، على ما في هذا الحوار من جرأة وتطاول من اللعين إبليس، حتى سأل الله تعالى أن ينظره إلى يوم يبعثون، فأنظره إلى يوم الوقت المعلوم: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۝ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [ص: ٨٢، ٨٣]. اقرأ القصة في سورة «ص».

وقد اعتبر القرآن الحوار وسيلة من وسائل الدعوة مع المخالفين، وقد أمرنا به في الآية الكريمة التي رسمت منهج الدعوة مع الموافقين، ومع الآخرين، وهي قوله تعالى: ﴿ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل: ١٢٥].

فالدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة مع الموافقين من أهل الملة، وأما الجدال بالتي هي أحسن، فيكون مع المخالفين. ومن روائع التعبير في الآية أنه اكتفى في الموعظة بأن تكون حسنة؛ لأنها مع الموافق، وأما الجدال، فلم يكتفِ إلا بأن يكون بالتي هي أحسن؛ لأنه مع المخالف.

QaradawiBooks.com

ومعنى هذا: أنه إذا كانت هناك طريقتان للجدال، وللحوار، إحداهما حسنة جيدة، والأخرى أحسن منها وأجود، فالمسلم مطالب أن يحاور غيره بالتي هي أحسن وأجود، على معنى أن يتخيَّر أرقَّ الأساليب، وألطف العبارات، وأقربها إلى إقناع العقول، واستمالة القلوب، وعدم إيغار الصدور.

وقد وجدنا كثيرًا من ثقات علماء المسلمين ودعاتهم يرحبون بالحوار الإسلامي المسيحي في العصر الحاضر، إذا عُيِّنت أهدافه، وبُيِّنت موضوعاته، وحُدِّدت ضوابطه.

وقد حضر العلامة الشيخ الدكتور مصطفى السباعي رَحِمَهُ اللَّهُ في الخمسينيات مؤتمرًا للحوار في لبنان.

كما شارك وفد من رابطة العالم الإسلامي برئاسة رئيسها الشيخ محمد علي الحركان رَحِمَهُ اللَّهُ في السبعينيات من القرن العشرين في حوار مع الفاتيكان وكرادلته، وكان في الوفد عدد من العلماء والمفكرين، أذكر منهم الدكتور محمد معروف الدواليبي، والأستاذ محمد المبارك، وكان الحوار عن «حقوق الإنسان بين الإسلام والمسيحية» وصدر كتاب عن الرابطة في ذلك، وقد سمعت من الأستاذ المبارك رَحِمَهُ اللَّهُ أن نتائج هذه اللقاءات والحوارات كانت إيجابية لصالح الإسلام والمسلمين.

كما نظَّمت الجماهيرية الليبية عن طريق جمعية الدعوة الإسلامية بها حوارًا آخر مع الكنيسة حول أربعة موضوعات بين الإسلام والمسيحية، اختير للحديث في كل منها أربعة أشخاص مشهود لهم، من الجانبين. وقد صدر عن هذا اللقاء توصيات جيدة.

QaradawiBooks.com

وقد شاركت شخصيًّا في بعض الحوارات مع المستشرقين في مؤتمر عقد في باريس في أكتوبر سنة ١٩٩٤م.

وفي لقاء آخر في مدينة «كولن» بألمانيا، نظمه الدكتور عبد الجواد فلاتوري رَحِمَهُ اللَّهُ، وكنا وفدًا من مصر فيه شيخنا محمد الغزالي رَحِمَهُ اللَّهُ، والدكتور محمود حمدي زقزوق، وعدد من علماء الأزهر، وكان لقاء مهم ومطول، أجبنا فيه عن تساؤلات القوم عن الإسلام، وحدث تفاهم وتعارف وتقارب، أحسب أنه مفيد للطرفين.

ومن إخواننا من علماء الشريعة من يتوجس خيفة أو يتوقع شرًّا، من وراء هذه اللقاءات، ويرى أنها نوع من الغزو لنا، ومحاولة التأثير فينا، وكأننا نحن الطرف الضعيف الذي يخاف على نفسه، ولِمَ لا يكون العكس؟ لِمَ لا نكون نحن المؤثرين لا المتأثرين، والغزاة لا المغزوين، ونحن أصحاب الدين الخاتم، والكتاب المعجز، والعقيدة الموافقة للعقل، والأخلاق الملائمة للفطرة، والشريعة المحقِّقة للعدل؟

ثم إننا مأمورون بالجدال بالتي هي أحسن كما أمرنا بالدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، في آية واحدة، فلماذا نعمل بجزء من الآية، ونعطل الجزء الآخر؟

وقد قال عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓاْ أَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنۡهُمۡۖ وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦]. فالذين ظلموا وتجاوزوا من أهل الكتاب ـ مثل اليهود الآن والنصارى في عهد الحروب الصليبية مثلًا ـ لا جدال بيننا وبينهم. إنما نجادل أهل الكتاب الذين لم يظلمونا ولم يعتدوا علينا، ولم يتجاوزوا الحدود معنا.

QaradawiBooks.com

وجدالنا معهم دائمًا بالتي هي أحسن، كما هو شأن المسلم مع غيره.

ومن أصول هذا الجدال: أن نذكر الجوامع المشتركة بيننا وبينهم، لنقرِّبهم إلينا، ونزيل الحواجز بين الطرفين، وفي هذا جاء قوله تعالى: ﴿وَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱلَّذِيٓ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَأُنزِلَ إِلَيۡكُمۡ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمۡ وَٰحِدٞ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

الحوار لا يسقط حقنا في الدعوة:

على أن ترحيبنا بالحوار لا يسقط حقَّنا في الدعوة إلى رسالتنا العالمية، التي كلَّفنا الله تعالى حملها وتبليغها إلى البشرية، بلسان عصرها، حتى نبيِّن لها، وتعقلها عنا، هذه الرسالة التي نؤمن ـ نحن المسلمين ـ أنها طوق النجاة للإنسانية مما تعانيه اليوم من قلق نفسي، وتحلُّل أخلاقي، وتفكُّك أسري، وتخبُّط اجتماعي، كما أنها سبيل الفلاح والسعادة في الآخرة، فنحن ندعو الناس كافَّة في مغرب ومشرق، وندعو أهل الكتاب خاصة إلى ما دعا إليه محمد خاتم الرسل القياصرة والملوك وأهل الكتاب في عصره. إلى دعوة التوحيد الخالص، الذي يحرِّر الإنسان من عبادة الطبيعة في الأرض أو في الأفلاك، ومن عبادة المخلوقات غير المنظورة من الملائكة أو الجن، ومن عبادة الأوثان والأصنام، ومن عبادة الإنسان للإنسان، ومن عبادة الذات أو عبادة الهوى، ومن عبادة كلِّ ما سوى الله جل شأنه، وهذا هو التحرر الحقيقي.

﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ فَإِن تَوَلَّوۡاْ فَقُولُواْ ٱشۡهَدُواْ بِأَنَّا مُسۡلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٦٤].

* * *

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

ثقافة تؤمن بالتجديد

ومن فضائل ثقافتنا: أنها لا تضيق بالتجديد، بل تؤمن به، وتفتح ذراعها له، سواء تجديدًا في الدين أو تجديدًا في الحياة.

تجديد الدين:

وكيف لا تؤمن بالتجديد، وهذا رسولها يقول بصريح العبارة مبشِّرًا لأمته: «**إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كلِّ مائة سنة مَن يجدِّد لها دينها**»[1].

فليس لقائل أن يقول: كيف يجدَّد الدين، وهو نصوص محكمات، وآيات كريمات، وأحاديث شريفات؟

فنحن نقول: إن تجديد الدين بمعنى: تجديد الإيمان به، وتجديد الفَهم له، والفقه فيه، وتجديد الالتزام والعمل بأحكامه، وتجديد الدعوة إليه.

ولهذا عرف تاريخ أمتنا مجدِّدين من أمثال عمر بن عبد العزيز، الذي جدَّد سنن الخلفاء الراشدين بعد اندراسها، والشافعي الذي وضع علم

(١) رواه أبو داود في الملاحم (٤٢٩١)، والطبراني في الأوسط (٦٥٢٧)، والحاكم في الفتن والملاحم (٥٢٢/٤)، وسكت عنه ولكن نقل تصحيحه المناوي في فيض القدير (١٨٤٥)، فلعله سقط من المطبوع، وسكت عنه الذهبي، عن أبي هريرة.

QaradawiBooks.com

أصول الفقه، والغزالي الذي أحيا الله بـــه علوم الدين، وابن تيمية، وابن القيم، وابن الوزير، وولي الله الدهلوي، وغيرهم.

وتجديد الشيء ليس معناه: أن تزيله، وتنشئ شـــيئًا جديدًا مكانه. فهذا ليس من التجديد في شيء. تجديد شيء ما أن تُبقي على جوهره ومعالمـــه وخصائصـــه، ولكن ترمم منـــه ما بلي، وتقوي مـــن جوانبه ما ضعف، كما لو أردتَ تجديد جامع أثري، أو قصر أثري، فلا بد أن تحافظ عليه وعلى خصائصه وروحه ومادته ما اســـتطعت. ولكن تجدِّد من ألوانه ما ذهب، ومن بنائه ما وَهَى، وتحسِّـــن من مداخله، وتجمِّل الطريق إليه، إلخ.

تجديد الدين لا بد أن يكـــون من داخله، وبأدواته الشـــرعية، وعن طريق أهله وعلمائه، لا بالإغـــارة عليه، ولا بالافتيـــات على أهله، ولا بإدخال عناصر غريبة عنه، وفرضها عليه عَنوة.

إنما يتجدَّد الدين بالاجتهاد الحق، الصادر من أهله في محله، وأهل الاجتهاد في الدين معروفون، لا بألقابهم، ولا بأزيائهم، ولا بشهاداتهم، لكنهم مَن اســـتجمعوا شـــروطًا علمية وأخلاقية معروفة في علم أصول الفقه. وقد اعتبر العلماء «الاجتهاد» من «فروض الكفاية» التي يجب أن تتحقق على مســـتوى الأمة، فإذا لم يكن فيها عدد كافٍ من المجتهدين يلبي الحاجة أثمت الأمة جمعاء.

المجددون المزيفون:

وإن كنا نرى الكثيرين في العصر الحاضر، قد أقحموا أنفســـهم على الدين، وزعم كل منهم أنه مجدِّد الملة، وشيخ الإسلام، وإمام الزمان.

QaradawiBooks.com

فمنهم مَن يقــرأ القرآن قراءة جديدة معاصــرة، تلغي قراءة الأمة طــوال أربعة عشــر قرنًا، فهو يلغــي تراثهــا كله، ويلقيه في ســلة المهملات، ويبدأ من الصفر، لا يعتمد على حديث مرفوع، ولا على أثر موقوف على صحابي، ولا على قول صحيح عن تابعي، ولا على رأي مأثور عن إمام في اللغة أو إمام في الفقه أو إمام في التفسير. هو وحده حجــة الزمان، ومــا عداه جهــل وبهتان، ثم يأتــي من عنده بتفسيرات وآراء ما أنزل الله بها من ســلطان، ولا يقوم عليها برهان. والعجب أن هذا المدعي لا يحســن أن يقرأ آية قراءة صحيحة، ليس فقط لأنه لا يحفظ القرآن؛ بل لأنه لا يعرف مرفوعًا من منصوب، ولا فاعلًا من مفعول!

ومنهم مَن يريد أن يلغي الفقه كله، فقــه الصحابة، وفقه التابعين، وفقه الأئمــة المتبوعين، وغير المتبوعيــن، وأن نضرب عرض الحائط بهذه الثروة التشــريعية والحقوقية الهائلة، التــي لا توجد لدى أمة من الأمم، والتي اعترف بفضلها وقيمتها وسَعَتها العرب والعجم، والشرق والغرب، ونوَّهت بها المؤتمرات الدولية للقانون في لاهاي وفي باريس وفي غيرهما.

فيأتي شخص لا يحســن أن يقرأ صفحة من كتاب في أصول الفقه، مثل: «الرسالة» للشافعي، أو «البرهان» لإمام الحرمين، أو «المستصفى» للغزالي، أو «المحصول» للرازي، أو «الموافقات» للشاطبي، أو من كتاب في الفقه مثل «بدائع الصنائع» للكاســاني، أو «الذخيــرة» للقرافي، أو «المجموع» للنــووي، أو «المغني» لابن قدامة. ويقــول لنا: ارموا بهذا الفقه، فهو الذي أخَّركم، وهو الذي جمَّدكم.

QaradawiBooks.com

وما ذنب الفقه، وما ذنب الأمة إذا كان هذا الشخص لا يحسن أن يقرأه، وأن يفهمه، وأن يستفيد منه؟ وما ذنب الفقه إذا كانت الأمة لا تحسن الاستفادة من كنوزه، وتوظيفها في اجتهاد جديد، يراعي تغيير الزمان والمكان والإنسان؟

ومنهم مَن يريد أن نعرض عن حديث رسول الله ﷺ، وأن نمزِّق كتب الحديث كلها؛ لأن في هذه الكتب أحاديث ضعيفة، أو أحاديث موضوعة، أو أحاديث لا أصل لها، وأن من المحدثين مَن عطلوا العقل في مقابل النقل، ومَن ناصروا الجمود والتقليد، في مقابلة الاجتهاد والتجديد.

وعيب هؤلاء أنهم لم يغوصوا في أعماق ثقافتنا، ولم يعرفوا ما بذلت هذه الأمة في سبيل الحفاظ على تراث نبيها، وأن الله هيَّأ لعلم النبوة مَن نفى عنه تحريف الغالين، وانتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين.

وعيب هؤلاء أنهم لم يعرفوا أمتهم، ولم يقدروها قدرها، حسبوا أنها أمة بلهاء، وأن علماءها من المغفلين، الذين تروج عليهم الأباطيل، ويخدعهم السراب، وجهلوا أن هذه الأمة لا تجتمع على ضلالة؛ لأنها لا توجد بعدها أمة أخرى، تصحِّح خطأها، وتهديها من ضلالتها. هذا ما أثبته القرآن، وما أيَّدته السنة، وما صدقه التاريخ.

أما القرآن فهو يقول: ﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾ [الأعراف: ١٨١]، فهذه الآية باقية ما بقيت الحياة، وبقي الناس. وكما قال تعالى: ﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾ [الأنعام: ٨٩].

QaradawiBooks.com

وأما السنة، فقد استفاضت الأحاديث الصحاح عن عدد من الصحابة، لا يتصوَّر أن يتواطؤوا لا هم ولا مَن روى عنهم، على الكذب على رسول الله، كلُّ هذه الأحاديث تبشِّر الأمة بأنه: «**لا تزال طائفة منها قائمة على الحق، لا يضرهم مَن خالفهم حتى يأتي أمر الله، وهم على ذلك**»[١].

وتسمى هذه الطائفة عند العلماء «الطائفة المنصورة» فهذه الطائفة تمثل صمام الأمان للأمة، تعلِّم الجاهلين، وتردُّ الشاردين، وتُقوِّم المنحرفين، حتى تَقوم الساعة.

وأما التاريخ، فقد صدَّق القرآن العزيز، وصدق السنة المطهرة، ولم يخلُ عصر من علماء يقاومون البدع، ويحاربون الباطل، كما قال عليٌّ رضي الله عنه: لا تخلو الأرض من قائم لله بالحجة[٢].

وكما قال شوقي رحمه الله:

إن الذي خلقَ الحقيقةَ علقما لم يُخْلِ من أهل الحقيقة جيلا[٣]!

ولكن هؤلاء المجددين المزيفين جهلوا القرآن، وجهلوا السنة، وجهلوا التاريخ.

وهؤلاء وأمثالهم هم أدعياء التجديد في عصرنا، ولكنهم للأسف لهم صوت مسموع، ولواء مرفوع.

---

(١) رواه عدد من الصحابة، منها ما رواه معاوية بن أبي سفيان: «لا يزال من أمتي أمة قائمة بأمر الله، لا يضرهم من خذلهم، ولا من خالفهم، حتى يأتيهم أمر الله وهم على ذلك». متفق عليه: رواه البخاري في المناقب (٣٦٤١)، ومسلم في الإمارة (١٠٣٧).

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية (٧٩/١)، والخطيب في الفقيه والمتفقه (١٨٢/١)، وقال الخطيب: هذا الحديث من أحسن الأحاديث معنى وأشرفها لفظًا. كما شرحه ابن القيم شرحًا وافيًا في كتابه مفتاح دار السعادة (١٤٤/١) وما بعدها.

(٣) الشوقيات، صـ٤٧٥، تعليق د. يحيى شامي، نشر دار الفكر العربي، بيروت، ط١، ١٩٩٦م.

QaradawiBooks.com

إنهم الذين سخر منهم أديب العربية والإسلام مصطفى صادق الرافعي حين قال عن أمثالهم: إنهم يريدون أن يجددوا الدين واللغة والشمس والقمر[١]!

وهم الذين سخر منهم أمير الشعراء أحمد شوقي في قصيدته عن «الأزهر» فقال:

لا تحذُ حذو عصابة مفتونة ... يجدون كل قديم أمر منكرا
ولو استطاعوا في المجامع أنكروا ... من مات من آبائهم أو عُمِّرا
من كل ساعٍ في القديم وهدمه ... وإذا تقدَّم للبناية قصَّرا
وأتى الحضارة بالصناعة رثة ... والعلم نزرًا، والبيان مثرثرا[٢]

إننا نؤمن بالتجديد إذا كان تجديدًا حقًّا، ونرحب بالمجددين إذا كانوا مجددين صدقًا، أما هؤلاء الذين ذكرنا نماذج لهم، فإن ما دعوا إليه لا يدخل في باب التجديد، بل هو من باب الهدم والتبديد.

إننا نرفض هؤلاء المبددين بقدر رفضنا لدعاة «التقليد» و«التجميد» الذين يريدون أن يبقى كل قديم على قدمه، ولا يرحِّبون بأي اجتهاد جديد أو فكر جديد، شعارهم: ما ترك الأول للآخر شيئًا، وليس في الإمكان أبدع مما كان.

نحن نرفض الذين يريدون أن يحرموا على الناس أن يفكروا بعقولهم، وأن يجتهدوا لزمانهم، كما اجتهد السابقون لزمانهم. ونرى أن هؤلاء الجامدين يسيئون إلى أنفسهم، وإلى الدين الذي يزعمون أنهم يتكلمون باسمه، وهذا الدين ليس فيه رجال كهنوت، ولا إكليروس، إنما

(١) من عبارة الرافعي على غلاف كتابه تحت راية القرآن.
(٢) الشوقيات صـ٣١٨.

QaradawiBooks.com

فيه علماء قادرون راسخون مؤهلون لأن يردوا فروعه إلى أصوله، وأن يأتوا البيوت من أبوابها، ويستقوا المياه من منابعها النقية.

وقد ذكر الأمير شكيب أرسلان في كتابه «لماذا تأخر المسلمون؟!»: أن الدين إنما ضاع بين جاحد وجامد، فالجاحد يضلل الناس بجحوده، والجامد يفتنهم بجموده[١].

تجديد اللغة والأدب:

وكما استعرت المعركة من أجل تجديد الدين بين الدعاة والأدعياء، وبين الصادقين والزائفين، فقد التهبت المعركة كذلك حول اللغة والأدب والتجديد فيهما، بين الأصلاء في اللغة، والدخلاء عليها، وبين أهل الأدب المطبوع وأهل الأدب المصنوع.

ولا ريب أن اللغة من المكونات الأساسية لثقافتنا ولأي ثقافة. ونحن نملك بحمد الله لغة استمرَّت منذ نحو ثلاثة آلاف سنة، وفيها من الغنى والثراء من المفردات، ومن خصائص الاشتقاق والمصادر والجموع وغيرها ما يجعل لها مزية على غيرها.

ولا عجب أن أنزل الله بها أفضل كتبه وآخرها، الذي تميز بالخلود والإعجاز «القرآن الكريم».

ولا غرو أن وجدنا في هذه اللغة التعبير عن أدق الأشياء المادية، وأعمق الخلجات النفسية، حتى وجدنا عاطفة كالحب، تعبِّر عنها تعبيرات مترتبة متصاعدة، لا توجد في لغة أخرى.

(١) لماذا تأخر المسلمون وتقدم غيرهم للأمير شكيب أرسلان صـ ٨٨، ٨٩، نشر دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٦٥م.

QaradawiBooks.com

كما تعبر عن الإنسان في بطن أمه، بعد ما كان نطفة فعلقة فمضغة فعظامًا، فخلقًا آخر، هذه مرحلة الجنينية، ثم بعد الولادة يكون طفلًا، وليدًا، فرضيعًا، ففطيمًا، فصبيًّا، فغلامًا، فمراهقًا، فشابًّا، فكهلًا، فشيخًا.

إنها لغة حية أصيلة لا نخشى من انفتاحها على اللغات الأخرى لنستفيد منها إن أمكن ذلك، مثل تعريب بعض الكلمات، بأن تبقى على أصلها الأعجمي، مع تغيير صيغتها بما يناسب العربية مثل التعبير عن «الكيلو» بـ «الكيل» فتقول: قطعت ثلاثين «كيلًا» سيرًا. والتعبير عن «التلفزيون» بـ «التلفاز»، ونحو ذلك.

وأفضل من هذا إيجاد بديل للكلمة الأجنبية من العربية نفسها، وهذا تقوم به مجامع اللغة في بلادنا العربية، مثل المذياع للراديو، والهاتف للتليفون، والسيارة والطائرة والقطار ونحوها.

ومثل ذلك «المصطلحات العلمية» في الفيزياء والكيمياء والفلك والطب والصيدلة والزراعة وغيرها، ومثل ذلك المصطلحات الفلسفية والفكرية والاجتماعية، ونحوها مما يتعلَّق بالعلوم الإنسانية والاجتماعية.

وكثيرًا ما تصيب هذه المصطلحات في التعبير عن المفاهيم المترجمة عنها، وأحيانًا قد يجانبها الصواب، مثل ترجمة (Secularism) وتعني فصل الدين عن المجتمع والحياة بـ «العلمانية» فهي ـ كما يظهر لي ـ منسوبة إلى العِلم «بكسر العين»، زيد فيها الألف والنون، كما في كثير من الكلمات، مثل الروحانية والنورانية والنفسانية والعقلانية، نسبة إلى الروح والنور والنفس والعقل.

QaradawiBooks.com

وإنما ترجمها من ترجمها بذلك؛ لأن الذين كانوا يترجمون مشبَّعون بالثقافة الغربية والمفاهيم الغربية، والعلم عندهم مقابل للدين، فمن هنا كانت العلمانية بهذا المعنى في مقابل الدين.

أما نطقها بفتح العين «العَلْمانية» فلا أجد لها وجهًا، إذ لا يوجد في لغة العرب «عَلْم» حتى ينسب إليه، وإن اختار ذلك للأسف «المعجم الوسيط»، وانتشر هذا على ألسنة كثير من المثقفين!

الانفتاح على اللغات مطلوب، ولكن بشرط أن نحافظ على ذاتية لغتنا، وعلى خصائصها، فهي لغة لها أصولها وقواعدها ونحوها وصرفها وبلاغتها، بوصفها لغة مُعْرَبة، ولغة فيها الحقيقة والمجاز، والإطناب والإيجاز.

لا مانع من التجديد في تعليم اللغة، وتيسير نحوها ـ من داخلها ـ وخصوصًا للناشئة من أبنائها، والاستفادة مما كتبه ابن مضاء الأندلسي، ومما كتبه المحْدثون والمعاصرون من علمائنا، بل وحتى مما كتبه بعض المستشرقين في ذلك، فليس كلُّ ما كتبوه باطلًا، والحكمة ضالة المؤمن حيثما وجدها فهو أحق بها.

أدب اللغة:

ولهذه اللغة أدب فاق آداب اللغات، عمره ألفا سنة، لأمة صَنْعتها البيان، تتباهى بالشعر، حتى إن القبيلة منهم إذا نبغ فيها شاعر واشتهر هنأتها القبائل الأخرى، حتى قيل: إنهم علقوا أفضل القصائد التي اشتهرت بينهم بالكعبة المقدسة عندهم، وسمَّوها «المعلقات».

وحيث بعث فيهم نبي الإسلام، كانت معجزته معجزة بيانية أدبية، من جنس ما نبغوا فيه، وهي «القرآن».

QaradawiBooks.com

تنوَّعت فنون الأدب عند العرب، ما بين الشعر بألوانه وأغراضه، وبحوره المختلفة، وما بين النثر بفنونه وقوالبه المتعددة، من الحكم النادرة، والأمثال السائرة، والرسائل والوصايا، والمقامات، والكتابات في شؤون الدين والدنيا بأسلوب أدبي. كما نرى في كتب التصوف، وفي كتب الجاحظ ورسائله.

ولا مانع أن تتجدَّد القوالب في عصرنا، بالاقتباس أو التطعيم، أو الابتكار، كما ابتكروا في الأندلس فنَّ «الموشحات» في الشعر. وكما ابتكروا «التشطير» و«التخميس» فيه.

ولقد رأينا البارودي في عصرنا يبتكر وزنا لم يسبق إليه، وهو (مجزوء المتدارك)، في قصيدته التي يقول فيها:

أين من رأى فاسدًا صلح
كلُّ من وشى سوف يُفتضح
فاترك الأذى فالأذى تَرَح
واسْعَ للعُلا مَن سعى نجح
وارعَ ما حوت هذه المُلَح

وينسج شوقي على منواله فيقول:

مالَ واحتجب وادَّعى الغضبْ
ليت هاجري يشرح السبب

كما أدخل شوقي فن «المسرحات» في الشعر، فأنشأ مسرحية «مجنون ليلى»، ومسرحية «مصرع كيلوباترا». وتقبلها الذوق العربي.

QaradawiBooks.com

وفي «مجنون ليلى» ابتكر شوقي بحرًا ليس مما ذكره الخليل بن أحمد في بحوره الخمسة عشر، ولا مما استدركه الأخفش على الخليل ـ وهو «بحر المتدارك» ـ ولا مما ابتكره المولَّدون، حتى سماه بعضهم «بحر شوقي»، يقول:

زيادُ ما ذاقَ قيسٌ ولا همَّا
طبخُ يد الأمِّ يا قيسُ ذُقْ مِمَّا
الأم يا قيسُ لا تطبخُ السمَّا

وأدخل غيره فن «الرباعيات» على غرار «رباعيات الخيام» أو الخماسيات أو السباعيات أو العشريات.

وجاء الشعر الحديث الذي يتقيد بالتفعيلة في البحر، ولا يتقيد بالقافية، ولا بعدد التفعيلات في البيت الواحد. ولا مانع منه إذا كان مضمونه معبرًا عن هوية الأمة وثقافتها، على ألا يطغى على الشعر العمودي. الذي تميَّزت به الأمة، ولا تكاد تحفظ وتروي غيره، فما رأيتُ أحدًا يحفظ قصيدة من الشعر الحر أو يستشهد به.

وكما دخل الشعر الحديث أدبنا، دخلته القصة والرواية، فلا شك أن هذا فَنٌّ جديد، غير ما عرفه العرب من فن المقامات، أو الملاحم الشعبية، من مثل سيرة بني هلال، أو عنترة بن شداد، أو سيف بن ذي يزن، أو الزير سالم، وغيرها مما تعلق به عامة الناس في العصور الماضية. ولكن هذا الفن منقول ـ ولا شك ـ عن الأدب الغربي، ولا حرج في ذلك.

إنه فن جديد رحَّب الناس به، وبرع فيه الكثيرون، من أمثال توفيق الحكيم، ومحمود تيمور، ومحمد عبد الحليم عبد الله، ويوسف إدريس،

QaradawiBooks.com

ويوسف السباعي، وإحسان عبد القدوس، ونجيب محفوظ، والطيب صالح، ونجيب الكيلاني، وغيرهم.

ولكن يحدث الخلاف حين يشطُّ واحد من القصاصين، ويغلو في شططه إلى حد يخترق فيه الأسوار المنيعة، ويتجاوز الخطوط الحمر، بدعوى حق الأديب في «الإبداع».

فهل حق الأديب حق مطلق لا قيود عليه، أو هو ملتزم ببعض القيود التي يفرضها دين المجتمع وقِيَمِه وتقاليده الراسخة؟

الحق أنه لا يوجد حرية مطلقة في الكون كله. السيارات تسير منضبطة بتعليمات المرور وإشاراته، والبواخر في المحيطات تجري في مسارات محددة رغم سَعَة المحيط، خشية أن تصطدم بما لا تحمد عقباه، أو تأخذها التيارات إلى ما يسرع بغرقها، والطائرات ليست حرَّة في جو السماء على رحابتها، وإنما تطير في خطوط معلومة، ومدارات مرسومة، بل النجوم في أفلاكها منضبطة بمداراتها، كل في فلك يسبحون، فلماذا يريد الأديب أن يخرج على النظام الكوني كله، ويسبح في فضاء لا تحدُّه حدود، ولا تقيده قيود؟

فإذا لم يكن الأديب ذا دين، فيلزمه أن يحترم دين قومه، على الأقل الأساسيات، أو «الثوابت» التي تعتبرها كلُّ أمة «مقدسات لا تمس»، مثل: الله جلَّ جلاله، عند أهل الأديان السماوية جميعًا، ومثل: القرآن الكريم، والرسول العظيم، وقطعيات الدين عند المسلمين.

والمثقف الحق هو الذي يرعى هذه الثوابت، ويحترمها، ولديه من الآفاق الواسعة ما يسبح فيه، ويحلِّق بجناحيه، بلا حرج ولا تضييق.

QaradawiBooks.com

إن أخطر ما يواجه أمة أن تصطدم الثقافة فيها بالدين. والمفروض أن تمتزج الثقافة بالدين، بل أن تكون في رحاب الدين.

الثقافة في مواجهة الدين:

إن أخطر معضلة تعانيها أوطاننا العربية والإسلامية، هي: سيطرة الثقافة المتغربة على أدمغة الكثيرين من أبنائها، وخصوصًا الذين يوجهون المؤسسات الثقافية والفكرية، ويقبضون على أزمة التوجيه والتثقيف العام في ديارنا.

فهؤلاء قد رضعوا من لِبان الثقافة الغربية، وتغذَّوا بها، ونشؤوا في حضانتها، وغدت لهم مرجعًا وإمامًا، بها يعتصمون، وإليها يحتكمون، وعنها يصدرون.

يتجلَّى هذا فيما ينشرون من كُتُب، وما يصدرون من مجلات، وما ينشئونه من أدب وفن، يُقرأ أو يُسمع أو يُذاع أو يُمثَّل ويُشاهد، في المسارح والسينمات أو الشاشات الصغيرة.

يقابل هؤلاء حملة الثقافة الإسلامية، المعبرة عن ضمير الأمة، والحاملة لمواريثها، والمجسِّدة لهُويَّتها. فهم على عكس أولئك، تمسكًا بالأصول، وعودة إلى الجذور، وتشبثًا بالهوية، فلا يقبلون من الآخرين، إلا ما ترضى عنه عقيدتهم، وما ينسجم مع شريعتهم، وما يتواءم مع قيمهم وأخلاقهم.

وكثيرًا ما نرى رحى الحرب دائرة بين الفريقين: الفريق الذي قلَّد الغرب، ودار في فلكه، وبعُد عن أهله، واغترب عن داره، وأخذ عن الغرب الغاية والوسيلة، والأصول والفروع، والشكل والمضمون. وحق

QaradawiBooks.com

على هذا الفريق ما جاء في الحديث الصحيح: «**لتتبعنَّ سنن من قبلكم شبرًا بشبرٍ، وذراعًا بذراعٍ، حتى لو دخلوا جحر ضبٍّ لدخلتموه**». قالوا: اليهود والنصارى؟ قال: «**فمَن؟**»[١].

ووقف فريق الأصالة ينافح عن أصالته، يبني ولا يهدم، ويجمع ولا يفرق، ويحيي ولا يميت، ولكنه يحذر من معاول الهدم، التي لا تبقي ولا تذر، ويعمل على تحويلها إلى آلات للبناء، وقد قال قائلهم:

متى يبلغ البنيانُ يومًا تمامَه إذا كنتَ تبنيه وغيرُك يهدم[٢]!

وقد تجلَّى هذا الصراع أظهر ما يكون، وأصرح ما يكون، أخيرًا في فتنة رواية «وليمة لأعشاب البحر» التي نشرتها وزارة الثقافة في مصر، والتي أحدثت غليانًا في الشارع المصري، حين كتب عنها بعض الناقدين في جريدة «الشعب» المصرية المعارضة، ونقل من ألفاظها ـ المتعلِّقة بالذات الإلهية وبالقرآن الكريم، وبالرسول محمد، وبتعاليم الإسلام ـ ما لا يتحمله وجدان المسلم وضميره في بلد دينه الرسمي الإسلام، وهو بلد الأزهر، قبلة المسلمين الثقافية. فلا غرو أن ثار طلاب جامعة الأزهر وطالباتها، منادين بمصادرة هذه الرواية ومعاقبة مَن نشرها وروَّجها في الناس.

ولقد قرأتُ هذه الرواية لأحكم لها أو عليها عن معرفة، فوجدتها من أولها إلى آخرها لا تحمل أيَّ توقير لله تعالى ولرسوله، ولا لكتابه، ولا لشريعته، وفيها من العبارات المستخفَّة بالألوهية وبالنبوة وبالدين الكثير

(١) متفق عليه: رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٥٦)، ومسلم في العلم (٢٦٦٩)، عن أبي سعيد الخدري.

(٢) من شعر صالح بن عبد القدوس، كما في البيان والتبيين للجاحظ (٢٥٨/٣)، نشر دار ومكتبة الهلال، بيروت، ١٤٢٣هـ.

QaradawiBooks.com

الكثير. بعضها على لسان بعض شـخصيات الرواية، وبعضها في السرد القصصي للمؤلف نفسه.

كما أنها تتحـدَّث عن العلاقات الجنسـية بعبارات مكشـوفة، مما يتحدَّث به سـفلة الناس وأراذلهـم، مما يخدش الحياء العام، ويشـيع الفاحشة في الذين آمنوا.

وقد كان جلُّ سخط الساخطين، ونقد الناقدين منصبًّا على نشر هذه الرواية من قبل الدولة ممثلة في وزارة الثقافة.

وكانت حجة وزارة الثقافة أنها لا تحجر علـى «إبداع» الأدباء، وأن الرواية ليس فيها ما يناقض الدين، وألَّفت لذلك لجنة من الأدباء والنقاد، زعمت أن الرواية ليس فيها ما يسيء إلى الدين.

والخطأ الأساسـي هنا: أن اللجنـة التي ألفتها الوزارة ليسـت ذات اختصاص فـي القضيـة المثارة، فلـو كان المطلوب هـو الحكم على المسـتوى الأدبي للرواية، وهل تسـتحق درجـة جيـد أو مقبول، أو لا تسـتحق؟ وهل تمنح جائزة أو لا؟ لكانت هذه اللجنة مقبولة. أما أن يكون المطلوب هو: هل في هذه الرواية ما يسيء إلى الدين أو لا؟ وهل فيها ما يخرج بقائله إلى الكفر أو لا؟ فهذا ليس شـأن هذه اللجنة، ولا من اختصاصها، وقد قال تعالـى: ﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾ [الفرقان: ٥٩]، وقال: ﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾ [فاطر: ١٤].

وقد أفتت جهة الاختصاص ـ وهو مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر الذي هو خبير الدولة في الشأن الإسلامي ـ بفتوى تاريخية موثَّقة بالأدلة من الرواية نفسـها، وحكمت بأن الرواية تحقر الأديـان، وتتطاول على

QaradawiBooks.com

ذات الله تعالى، وعلى الرسول ﷺ، وعلى القرآن الكريم، وعلى الآداب العامة، وأن ما جاء فيها «خروج عما هو معلوم من الدين بالضرورة، وانتهاك للمقدَّسات الدينية والشرائع السماوية، والآداب العامة، والقيم القومية، ويثير الفتن، ويزعزع تماسك وحدة الأمة...».

ويضع بيان الأزهر التاريخي على عاتق مَن نشر هذه الرواية المسؤولية الكاملة عن هذا التجاوز، والآثار المترتبة عليه دينيًّا واجتماعيًّا، إلخ.

وقد سئل شيخ الأزهر رئيس مجمع البحوث الدكتورمحمد سيد طنطاوي: هل يعتبر ما ورد في هذه الرواية كفرًا؟ فقال: من الواضح أن الخروج عما هو معلوم من الدين بالضرورة يعد كفرًا بالإجماع، وأن التطاول على الله تعالى ورسله وكتبه كفر بلا نزاع.

وببيان مجمع البحوث قطعت جهيزة قول كل خطيب، وإن كان من المؤسف أن وزارة الثقافة ظلت تماحك وتجادل، وتدعي أنها تنشر «الثقافة المستنيرة» لتواجه بها «الظلاميين» الذين يرفضون ثقافة التنوير. فهل هذه الرواية وأمثالها مما تتبناه وزارة الثقافة من «التنوير»؟ وما «الظلام» إذن إن كان هذا هو «النور»؟

الحقيقة أن هذه الرواية وأمثالها من باب التبوير لا من باب التنوير. لقد أخطؤوا في وضع النقطة فوضعوها فوق الحرف، وصوابها أن تكون تحته.

إن مشكلة المؤسسات الثقافية في أوطاننا: أنها يقوم عليها أناس غرباء عن أمتهم، غرباء عن عقائدها وقيمها وشرائعها، استنبتوا في غير أرضها، ورُبُّوا في غير أحضانها، وقرؤوا غير كتابها، وصلوا إلى غير قبلتها. ولذلك عاشوا في وادٍ، والأمة في وادٍ آخر. الأمة تشرِّق وهم يغرِّبون، وتُعرِّب وهم يُعْجِمون، وتحاول أن تبني وهم يهدمون.

QaradawiBooks.com

التنوير بين الحقيقة والتزييف:

وقضية «التنوير» هذه قد شابها كثير من الضباب والبلبلة على يد كثير من أصحاب الأقلام الذين خلطوا التنوير بالتزوير، أو تركوا مفهومه غائمًا رجراجًا، غير محدد ولا واضح، يتَّخذ منه الغلاة من دعاة اليمين ودعاة اليسار من «عبيد الفكر الغربي» أداة لتغييب هوية الأمة، وتحريف مسارها الصحيح لحساب أعدائها.

وقد كتب في ذلك كثيرون من المؤيدين والمعارضين، ولا سيما بعد رواية «الوليمة»، ولكن أختار هنا نموذجًا يعتبر غاية في الاعتدال والإنصاف، قدمه الشاعر والكاتب المعروف الأستاذ فاروق جويدة في صحيفة «الأهرام». وقد كتب في ذلك أكثر من مقال. وأكتفي هنا باقتباس فقرات من مقاله في (٣٠ يوليو سنة ٢٠٠٠م). قال تحت عنوان «التنوير وغياب الهوية»: «في قضية التنوير يجب أن نفرِّق بين ثلاثة مواقف على المستوى الفكري والثقافي. هناك فرق بين التفاعل الثقافي، والنقل الثقافي، والغزو الثقافي.

إن التفاعل الثقافي حوار بين ثقافتين على أرض واحدة، وأهم ما في هذا الحوار أن يكون متكافئًا من حيث التأثير والتأثُّر بحيث لا يستبيح أحدهما الآخر أو يجور عليه.

أما النقل الثقافي، فهو أن أجلس أمام الآخر لكي يلقنني ما يريد ابتداءً بالسياسة، وانتهاءً بالفكر، مرورًا على النقل الأعمى لكلِّ مظاهر السلوك دون وعي أو اختيار أو تفكير.

أما الغزو الثقافي، فهو أن يكون الهدف الوحيد للرسالة الثقافية هدفًا سياسيًّا صريحًا وواضحًا ولا خلاف عليه، حتى وإن تخفَّى في ثياب

QaradawiBooks.com

ثقافية مبهرة. إن المشكلة الأساسية الآن أن هذه المواقف الثلاثة تتداخل أحيانًا في بعضها بحيث يصعب الفصل بينها، ولكن في ظل ارتفاع درجة الوعي الفكري والسياسي لا ينبغي أبدًا أن تغيب عنا هذه الوجوه؛ لأن المسافة بينها بعيدة جدًّا وإن كانت أحيانًا تبدو قريبة.

إن التفاعل بين ثقافتين هو أرقى درجات الحوار بين الحضارات الإنسانية، وهناك ثقافات استطاعت أن تعيش وأن تستوعب الآخر وتتأثَّر به وتؤثِّر فيه. ولعل النموذج الواضح في التاريخ هو فترة الحكم الإسلامي للأندلس، وذلك التقارب الذي شهدته هذه المنطقة من العالم بين الثقافة العربية الإسلامية والثقافة الغربية في أوروبا.

لقد أثمر هذا التفاعل الخلَّاق صورة جديدة للحضارة الإنسانية في الطب والعلوم والآداب والفنون، وكانت جميعها شواهد حية على أن الثقافات يمكن أن تشارك في دعم مسيرة الإنسان وإن اختلفت منابعها.

ولكن البعض يتصور أن النقل الثقافي يكفينا، وأن ترجمة رواية أو كتاب أو نشر قصة جنسية هو أفضل وسائل التنوير. والمشكلة أن دورنا حتى الآن ما زال مقصورًا على استخدام وسائل الحضارة دون أن نشارك في صنعها. عندما انبهرت أجيال سبقت بفكر «جان جاك روسو» و«فولتير» حول قضايا الحرية وحقوق الإنسان وإرادة الشعوب، كان ذلك انبهارًا إيجابيًّا واعيًا، وكان تنويرًا حقيقيًّا؛ لأنه حرَّك العقول وأثار الأفكار والمشاعر.

ولكن عندما يتصوَّر البعض أن التنوير الآن هو الكتابة بلغة الجسد كما يسميها أصحابها، أو الاعتداء على قدسية العقائد وإهانتها والتطاول على الخالق سبحانه، أو ترويج نماذج سلوكية ساقطة، أو

QaradawiBooks.com

السخرية من رموزنا، أو رص نثر هزيل قبيح يطلقون عليه قصيدة النثر، أو استخدام كل أساليب الفجاجة والإسفاف في الكتابة تحت دعوى الإبداع، أو إعطاء جوائز الدولة لنكرات لا تستحقها وحجبها عن رموز الثقافة الحقيقية، أو التشكيك في كلِّ جذورنا الثقافية والفكرية والحضارية وامتهانها. إن هذا خطأ في فَهم معنى كلمة تنوير. إن امتهان القيم الحقيقية للثقافة العربية تحت دعاوى التنوير أكبر خطيئة في حقِّ التنوير نفسه.

وهنا يمكن أن نقترب من أسوأ أنواع العلاقات بين الثقافات وهو الغزو الثقافي؛ لأنه يحمل في حقيقته مطامع سياسية، ويعود بنا إلى عصور مضت حاولت السياسة أن تخفي وجهها الحقيقي خلف مطامع ومصالح كانت هي الهدف والغاية، وإن تخفت في الثقافة والفكر.

ولهذا فإن أسوأ ما يمكن أن تتعرض له ثقافات الشعوب الآن هو تلك اللعبة التي تحمل اسم التنوير، وتخفي أغراضًا سياسية مشبوهة، أو تصبح أدوات هدم وتخريب لمقومات الشعوب في الفكر والسلوك والعقائد.

ولهذا يجب أن نكون على وعي بهذا كله، وألا نفرط بسهولة في مقوماتنا الفكرية والثقافية؛ لأنها آخر ما بقي لنا. ويجب أيضًا أن نكون على وعي بكلِّ جوانب اللعبة على مستواها السياسي والثقافي معًا.

إذا كانت رسالة التنوير هدفها التفاعل والحوار بين ثقافتين، فهذا يتطلب أولًا أن ننمي قدرتنا على الحوار، وأن نوفر مناخ الحرية في الفكر والسياسة بما يضمن لنا الندِّيّة في المشاركة من حيث التأثير والتأثُّر في وقت واحد.

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

وهذا يتطلَّب أيضًا أن نحمي جذورنا وتاريخنا ومقومات وجودنا، فإذا كان الحوار مع الآخر مطلوبًا، فإن النقل مرفوض. والغزو الآن لا يأتي بالجيوش، ولكنه يأتي مع الهواء والماء والدواء والسندوتشات، وبنطلونات الجينز وكتابات الجسد وأغاني مادونا وأفلام ستالوني ومايكل جاكسون، وناطحات السحاب القبيحة والأبراج المشوهة. ومجموعة من المروِّجين الذين تخصَّصوا في بيع السلع الرديئة من حملة الأقلام والمباخر.

إن ما يحدث عندنا الآن باسم الإبداع والتنوير امتهان لكلِّ مقومات الإبداع، واعتداء على كلِّ رسالة نبيلة يسعى إليها التنوير.

إن مواكب التنوير الآن لم تستوعب تراث أمتها، ولم تدرك عمق جذورها الحقيقية؛ لأنها طحالب هشَّة تسلَّقت على وجه الأرض، دون أن يكون لها امتداد في عمق هذا الوطن. إنها نباتات مستنسخة في علب بلورية لم تحرقها حرارة الشمس، ولم تلفحها نسمات الصيف الحارقة، ولم تشرب مياه النيل. إنها لمبات فوسفورية سرعان ما تضيء وتخبو. من هنا يمكن أن نضع أقدامنا على الطريق الذي نريد.

إن قضية التنوير غاية في الأهمية لأنها تعني المستقبل، وتعني التطور في الفكر والرؤى، وتعني أيضًا حرية الإبداع وحقوق الإنسان. لقد ارتبطت في جوانبها السياسية والثقافية بأشياء عظيمة في تاريخ البشر، ونحن أحوج ما نكون لجوانبها الإيجابية.

نريد التنوير الذي يشعر الإنسان بآدميته وحقِّه في الحياة الكريمة، وأن يفكِّر دون خوف من سلطان أو رقيب.

QaradawiBooks.com

نريد الحرية السياسية التي تتمثَّل في ديمقراطية حقيقية للشعب يكون فيها صاحب الكلمة والقرار.

نريد أن نحمي جذورنا وتاريخنا وهُويَّتنا، بحيث نأخذ من الآخر ما يناسبنا، ويكون من حقِّنا أن نرفضه إذا تخفَّى وراء قناع مزيف سواء كان سياسيًّا أو أيدلوجيًّا أو حتى تكنولوجيًّا.

ومن هنا، فإننا وبنفس درجة حماسنا للتنوير، نرفضه رفضًا كاملًا إذا كان هدفه تغييب وعينا، وتدمير هويتنا، وتشويه مقوماتنا ومقدساتنا. فأهلًا بمواكب التنوير الواعي الأمين، وألف لا، لمواكب التنوير الأعمى المُغرِض.

ولا ينبغي أن تتحوَّل قضية التنوير إلى معارك وتصفيات فكرية؛ لأن أهم ما يميِّز روَّاد التنوير الحقيقي هو رحابة الفكر، واتساع الرؤى وشموليتها، واحترام لغة الحوار، وحينما تفقد مواكب التنوير هذه السمات، فإنها تتحول إلى مواكب صخب وضجيج فارغ. بل إنها تصبح نوعًا من الإرهاب الأعمى باسم الفكر.

إننا في حاجة إلى دعاة التنوير الحقيقي، ولسنا في حاجة إلى سماسرة الأفكار المبرمجة، وكتائب الاستقطاب السياسي من أصحاب المصالح.

وليكن التنوير هدفًا ورسالة سعيًا إلى تأكيد الهوية وتأصيل الجذور، وزيادة الوعي والتفاعل البناء مع الثقافات الأخرى تأثرًا وتأثيرًا» انتهى.

وهذا الكلام التنويري الحقيقي لا يحتاج إلى تعليق.

* * *

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

الانفتـاح المحـذور

- الانفتاح قبل النضج.
- الانفتاح المتساهل في الأخذ.
- الانفتاح المبهور بثقافة الغير.

نسخة مجانية

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

إن المسلم الحقَّ منفتح على الثقافات المختلفة، ولكن بشروط وضوابط، تجعل انفتاحه نافعًا ومأمونًا، ولا تجعل منه خطرًا عليه، أي على عقله ونفسه، على دينه وعقيدته، على مسلماته العقدية والفكرية.

فهذا النوع من الانفتاح محذور، يخشى على صاحبه الغرق في بحره، إن لم يأخذ له الأهبة، ويعد له أسباب الاحتياط.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

الانفتـاح قبل النضـج

من الانفتاح المحذور: أن يكون قبل مرحلة النضج، فمَن كان طري العود، ضعيف البنية، قليل الخبرة، لا يسابق الأبطال، ولا يدخل حلبتهم، وإلا سقط في أول الطريق، وخرج من السباق.

إنما يدخل حلبة السباق مَن كان مهيَّأ لها بالفطرة الموهوبة، والدربة المكسوبة، ومَن أعدَّه مدربوه لملاقاة الأبطال والمنافسين.

ولعل هذا كان سبب ما روي من منع النبي ﷺ، عمر بن الخطاب أن ينظر في صحائف من التوراة، وأنكر عليه ذلك بشدة، وقال له: «**أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب؟** ـ أي متحيرون ومترددون في ملتكم حتى تأخذوا العلم من غير كتابكم ونبيِّكم ـ **لقد جئتكم بها بيضاء نقية. والذي نفسي بيده، لو أن موسى كان حيًّا ما وسعه إلا أن يتبعني**»[1].

فلم كان هذا الاشتداد في الإنكار؟ ما ذلك إلا لأنه كان في مرحلة التأسيس والتكوين للعقيدة والملة، ولا ينبغي أن يشوش عليها في هذه المرحلة الخطيرة، حتى تترسَّخ أسسها، ويقوم بنيانها، ويخرج زرعها

(١) رواه أحمد (١٥١٥٦)، وقال مخرجوه: إسناده ضعيف. والدارمي في المقدمة (٤٤٩)، وأبو يعلى (٢١٣٥)، قال الحافظ ابن حجر في الفتح (٣٣٤/١٣): رجاله موثقون إلا أن في مجالد ضَعْفًا، عن جابر بن عبد الله.

غير مرخصة للبيع
نسخة مجانية

شطأه، ويستغلظ ويستوي على سوقه، ثم بعد ذلك تنفتح على ما شاءت من الديانات والثقافات والحضارات.

وإذا كان الرسول ﷺ شدد ـ في هذا الحديث إن صح ـ على عمر بن الخطاب، وهو من كبار أصحابه، كل هذا التشديد، فقد رأيناه عليه الصلاة والسلام لا يتخذ مثل هذا الموقف المتشدد مع بعض صغار الصحابة، مثل عبد الله بن عمرو بن العاص، الذي أخبره أنه سيقرأ الكتابين: التوراة والقرآن.

فقد روى الإمام أحمد، عن عبد الله بن عمرو أنه قال: رأيتُ فيما يرى النائم، لكأن في أحد إصبعيَّ سمنًا، والأخرى عسلًا، فأنا ألعقهما، فلما أصبحت، ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ، فقال: «**تقرأ الكتابين: التوراة والقرآن**». فكان يقرؤهما[1].

ويبدو أن ذلك أجيز، بعد أن رسخت قواعد الإسلام. وعرف علماء الأمة أن ابن عمرو كان يقرأ في التوراة وملحقاتها. ولهذا ينبغي أن يتوقف فيما جاء من أحاديث موقوفة على ابن عمرو في الغيبيات ونحوها مما لا مجال للرأي فيه، خشية أن يكون قد أخذه من أهل الكتاب، فهم قد حرَّفوا وبدَّلوا.

ولعل هذا الترخيص لابن عمرو هو ما جعل عددًا من كبار علماء الأمة يدرسون التوراة وملحقاتها والأناجيل وتوابعها؛ ليعرفوا ما بقي فيها من حق، ويردوا على ما فيها من باطل، منذ عهد أبي محمد بن حزم في كتاب «الفصل في الملل والنحل»، وغيره من الكتَّاب في تاريخ الأديان

(١) رواه أحمد (٧٠٦٧)، وقال مخرجوه: إسناده حسن. والطحاوي في شرح مشكل الآثار (٦٧٢)، وقال الهيثمي في المجمع (١١٧٧٣): رواه أحمد، وفيه ابن لهيعة، وفيه ضعف.

QaradawiBooks.com

والفرق، إلى الشيخ رحمة الله الهندي صاحب الكتاب القيم «إظهار الحق» في الرد على شبهات مبشري النصارى، إلى الداعية المعاصر أحمد ديدات في جنوب إفريقيا، ومثله الداعية الموفق الدكتور جمال الدين بدوي في كندا وأمريكا الشمالية.

الذي يهمنا تأكيده هنا هو المنع والتشديد من الانفتاح قبل الرسوخ والتمكن والنضج كما فعل الرسول الكريم مع عمر.

وإذا كان هذا التشديد على مستوى الأمة في مرحلة التأسيس، فينبغي أن نقف مثل هذا الموقف من الفرد في مرحلة التكوين، وقبل وصوله إلى النضج والاستقلال في الفكر، فهنا يكون الانفتاح محذورًا وخطرًا عليه.

لا بد أن تكون لديه حصيلة جيدة من الثقافة الإسلامية الأصيلة، المستقاة من الينابيع الصافية، تجيب المسلم عن تساؤلاته التي تحوك في صدره، أو ينطلق بها لسانه، عن العقيدة وعن الشريعة، عن الدين والدولة، حتى يقف على أرض صلبة، وتتكون لديه «مناعة» ضد أي ميكروبات مؤذية، ويستطيع بها أن يرد الشبهات التي تعترضه في طريقه، بما عنده من بينات وبصائر.

ومن هنا أوصى أكثر من مؤتمر إسلامي جمع علماء المسلمين ودعاتهم: ألا يبعث المسلمون بأولادهم الصغار إلى التعلُّم في خارج البلاد الإسلامية إلا بعد تخرجهم في الجامعات في بلادهم، فلا يذهبون في المرحلة الجامعية ـ بل الثانوية ـ إلى البلاد الأجنبية، وهم لم يصلب عودهم، فيخشى عليهم أن تغزو عقولهم الشبهات، وتغزو قلوبهم الشهوات.

QaradawiBooks.com

والشعوب المختلفة الآن تخاف من عواقب الانفتاح الثقافي، والبث المباشر، والغزو الإعلامي، حتى إن فرنسا لتحذر أبناءها من خطر الغزو الإعلامي الأمريكي عن طريق الأفلام والمسلسلات الأمريكية الشهيرة، التي تشد الناس إليها شدًّا، وخصوصًا جيل الشباب والفتيات التي تفعل في نفوسهم فعل السحر، برغم أن فرنسا وأمريكا تنتسبان إلى حضارة واحدة، هي الحضارة الغربية.

* * *

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

الانفتاح المتساهل في الأخذ والاقتباس

ومن الانفتاح المحذور: الانفتاح المتساهل، الذي لا حدود له ولا ضوابط، فهو يأخذ كلَّ ما يجد، دون أن يبحث فيما يصح وما لا يصح، وما قام عليه البرهان، وما لا برهان عليه، وما ينفع وما يضر، وما يبني وما يهدم، وما يحتاج إليه، وما لا يحتاج إليه، وما يتَّفق مع ثوابت العقل والنقل وما لا يتفق.

وهذا ما حدث لأمتنا مع ما عرف في تراثنا الثقافي باسم «الإسرائيليات». فقد راجت هذه الإسرائيليات عند كثير من كبار علماء الأمة من المفسرين والمحدثين ونحوهم رواجًا يعجب المرء له ويستغربه من أمثالهم.

وليتهم أخذوا منهم الصحيح من المنقول، والصريح من المعقول، والثابت من العلم، بل أخذوا كثيرًا بما شاع عند عوامهم، ولم يكن بالعلم الموثق أو المكتوب عندهم، وقد بدأ هذا التسرب ـ للأسف الشديد ـ من عهد مبكر. أي من عهد الصحابة والتابعين، على أيدي أمثال: كعب الأحبار، ووهب بن منبه، وغيرهما ممن دخل في الإسلام من أهل الكتاب. وكذلك ما وصل إلى المسلمين من كتب اليهود والنصارى.

نسخة مجانية

ولكن التسرب كان في أول الأمر قليلًا ثم كثُر، ضيقًا ثم اتسع، عفويًّا ثم طفق يأخذ صفة الكيد والتدبير، والدس المتعمد، على ما يظهر.

وكأن اليهودية حين منيت أمام دعوة الإسلام بالهزيمة العسكرية، في المدينة وخيبر وغيرهما، أرادت أن تقاوم الإسلام بسلاح آخر يعوِّضها عن هزيمتها. وذلك هو سلاح الغزو الثقافي، فدست إسرائيلياتها المنكرة، في غفلة من الأمة، فلم تمضِ برهة حتى غصَّت بها كتب المسلمين.

هذا مع أن القرآن الكريم، قد سجل على أهل الكتاب عامة واليهود خاصة، تحريفهم لكتبهم، وقولهم على الله بغير علم، وإن منهم لفريقًا ﴿يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٧٥]، ﴿وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِىَّ﴾ [البقرة: ٧٨].

وأنهم ﴿يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ لِيَشْتَرُوا۟ بِهِۦ ثَمَنًا قَلِيلًا﴾ [البقرة: ٧٩]، وأنهم ﴿وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾ [المائدة: ١٣]، وأنهم ﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾ [النساء: ٤٦، المائدة: ١٣]، إلى آخر ما وصفهم الله تعالى به من صفات السوء.

فكيف مع هذا تساهل المسلمون في الأخذ عن أهل الكتاب وعن بني إسرائيل على الخصوص؟

لعل من أسباب هذا: ما فهموه من حديث البخاري، عن عبد الله بن عمرو مرفوعًا: «**بلغوا عني ولو آية، وحدِّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج، ومَن كذب عليَّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار**»[1]. وقد ذكره الإمام

(١) رواه البخاري في أحاديث الأنبياء (٣٤٦١).

QaradawiBooks.com

ابن كثير في مقدمة تفسيره مستدلًّا به على جواز التحدُّث عنهم فيما لا نعلم كذبه من ديننا[١].

وقد عقَّب على ذلك العلامة الشيخ أحمد محمد شاكر رَحِمَهُ ٱللَّهُ، فقال وأحسن فيما قال: «إن إباحة التحدث عنهم ـ فيما ليس عندنا دليل على صدقه ولا كذبه ـ شيء، وذكر ذلك في تفسير القرآن، وجعله قولًا أو رواية في معنى الآيات، أو في تعيين ما لم يعين فيها، أو في تفصيل ما أجمل فيها شيء آخر؛ لأن في إثبات مثل ذلك بجوار كلام الله، ما يوهم أن هذا الذي لا نعرف صدقه ولا كذبه مبين لمعنى قول الله سبحانه، ومفصِّل لما أجمل فيه! وحاشا لله ولكتابه من ذلك.

وإن رسول الله ﷺ، إذ أذن بالتحدث عنهم؛ أمرنا ألا نصدِّقهم ولا نكذِّبهم. فأي تصديق لرواياتهم وأقاويلهم أقوى من أن نقرنها بكتاب الله، ونضعها منه موضع التفسير أو البيان؟ اللهم غَفْرًا.

ومن الكلمات البليغة المعبرة عن الإنكار والسخط على هذه الإسرائيليات، ووجوب تنزيه القرآن عنها: كلمة لابن عباس، رواها البخاري في «صحيحه»، ونقلها عنه الحافظ ابن كثير، عند تفسير الآية (٧٩) من سورة البقرة. فقال ابن عباس: يا معشر المسلمين، كيف تسألون أهل الكتاب عن شيء، وكتابكم الذي أنزل الله على نبيه أحدث أخبار الله، تقرؤونه محضًا لم يشب! وقد حدثكم الله أن أهل الكتاب قد بدَّلوا كتاب الله وغيَّروه وكتبوا بأيديهم الكتاب، وقالوا: هو من عند الله، ليشتروا

(١) تفسير ابن كثير (٩/١)، تحقيق سامي محمد سلامة، نشر دار طيبة، ط٢، ١٤٢٠هـ ـ ١٩٩٩م.

QaradawiBooks.com

به ثمنًا قليلًا. أفلا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مساءلتهم؟ ولا والله، ما رأينا منهم أحدًا قط سألكم عن الذي أنزل إليكم[١].

وهذه الموعظة القوية الرائعة، رواها البخاري في ثلاثة مواضع من صحيحه»[٢].

إن المسلم حين ينفتح على ثقافة الآخرين، لا يأخذها بعُجَرها وبُجَرها، وحقها وباطلها، بل يأخذ منها الحقَّ، ويَدَع الباطل، يأخذ ما يتَّفق مع صحيح النقل، وصريح العقل، وثوابت العلم، ويَدَع ما يخالف ذلك.

أما أن يفتح جَعبته ليملأها بالغثِّ والسمين، والرخيص والثمين، فهذا ما لا يقبله منطق الإسلام.

وهذا للأسف ما وقع فيه كثير من المسلمين في عصرنا بالنسبة للثقافة الغربية، فقد أخذوها بخيرها وشرِّها، وحلوها ومرِّها، ما يُحَب منها وما يُكره وما يُحمد منها وما يُعاب، وزعموا أن الثقافة لا بد أن تؤخذ بجذورها الفلسفية، وقيمها المعرفية والأخلاقية، وتوجهاتها الاجتماعية والسياسية، وأنظمتها الاقتصادية والتشريعية، ولا يكفي أخذ الجانب العلمي أو التكنولوجي أو الإداري والتنظيمي فيها، وهو ما ننكره، وقد ناقشناه في بعض كتبنا[٣].

---

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الشهادات (٢٦٨٥)، وفي الاعتصام (٧٣٦٣)، وفي التوحيد (٧٥٢٣). وانظر تفسير ابن كثير (٣١٣/١).

(٢) مقدمة عمدة التفسير لأحمد محمد شاكر (١٤/١ ـ ١٧)، نشر دار الوفاء، المنصورة، ط١، ١٤٢٤هـ، وانظر كتابنا: ثقافة الداعية صـ ٤١ ـ ٤٦، مبحث: الإعراض عن الإسرائيليات، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط١٥، ١٤٣٠هـ ـ ٢٠٠٩م.

(٣) انظر كتابنا: الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا صـ ١٢٦ ـ ١٣٧ ـ ١٣٩، في مناقشة رأي توينبي في اقتباس الحضارات، نشر مكتبة وهبة، القاهرة، ط٦، ١٤٢٦هـ ٢٠٠٦م.

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

الانفتاح المبهور بثقافة الغير

ومن الانفتاح المحذور أيضًا: الانفتاح المبهور بثقافة الآخر، حين ينظر إليه مضخمًا من شأنه، معظمًا من فكره، شاعرًا بالدونية تجاهه لسبب أو لآخر، فكلُّ ما قاله هذا الآخر فهو صدق، وكل ما رآه فهو صواب، وكل ما فعله فهو جميل. أي أنه أضفى عليه نوعًا من «التأليه» بالفعل، وإن لم يكن تأليهًا بالقول.

وقد وقع هذا في تاريخنا مرتين بارزتين:

المرة الأولى مع الفلسفة اليونانية:

مع الثقافة الإغريقية أو الفلسفة اليونانية، حين ترجم المسلمون كتبها، فبُهروا بها، وأخذهم الإعجاب بأهلها كلَّ مأخذ، وخصوصًا أن هذه الفلسفة كانت ممزوجة بالعلوم الطبيعية والرياضية، وكانت هذه معدودة من شعب الفلسفة، ومخلوطة بالفلسفة الميتافيزيقية، أي المتعلِّقة بالألوهية وما وراء الطبيعة، وظنَّ المتأثِّرون بالفلسفة من المسلمين أن الذين وصلوا في العلوم والرياضيات إلى ما وصلوا إليه من الدقة والصواب، في مثل الكسوف والخسوف ونحوهما، لا يمكن أن يخطئوا فيما وراء الطبيعة.

وهذا ما نبَّه عليه الإمـــام أبو حامد الغزالـــي، وردَّ عليه وبيَّن ضعفه بمنطقه القوي، وذلك في كتابه الفريد «المنقذ من الضلال».

والمرة الثانية مع الثقافة الغربية:

مع الثقافة الغربية الحديثة، التي غـــزت أمتنا في هذا العصر، حيث دخلت أوطاننا العربية الإســـلامية تحت ســـلطان الاســـتعمار المنتصر، واستطاعت هذه الثقافة بوسائل متعددة، وبأساليب متنوعة[1]، أن تؤثِّر في عقول أبناء الأمة وفي أنفســـها وضمائرها، وأن تغيِّـــر كثيرًا من المفاهيم والقيم الموروثة، وكثيرًا من التقاليد والسلوكيات المستقرَّة، وهو ما عرف باسم «الغزو الفكري» أو «الاستعمار الثقافي».

وساعد على نجاح هذا الغزو: أن المسلمين كانوا في أردأ أحوالهم الثقافية والاجتماعية، وقـــد بلغ منهم التخلُّف مبلغـــه في كلِّ نواحي الحياة، التي ضربـــت بالعفن، فـــلا اجتهاد في الفقـــه، ولا إبداع في الأدب، ولا ابتكار في الصناعة، ولا حركة في الحياة. وأســـوأ من هذا كله الرضا بهذا المستوى الدون، وتبريره بما لا يقبله عقل صريح، ولا نقل صحيح، مثل قولهم: ما ترك الأول للآخر شيئًا. وليس في الإمكان أبدع مما كان!

وقد شـــاعت أفكار وتقاليد تلبس لبوس الدين، والدين الصحيح منها براء، مثل فَهم «القدر» على أنه «الجبر»، وفهم «التوكل» على أنه «التواكل»، وفهم «القناعة» علـــى أنها «الرضا بالدون»، وفهم «الصبر» على أنه «الخنوع للطغيـــان»، وفهم «التقوى» على أنها «الدروشـــة»،

(١) شرحنا ذلك في كتابنا: الحلول المستوردة وكيف جنت على أمتنا، فصل: كيف عزل الإسلام عن قيادة المجتمع صـ١١ ـ ٤٢.

QaradawiBooks.com

وفهم «الزهد» على أنه «إهمال الحياة»، وفهم «طاعة أولي الأمر» على أنها «السير في ركابهم»، وفهم «الشورى» على أنها «مُعْلِمة لا لا ملزمة»، وفهم «التفاضل في الرزق» على أنه «إقرار التظالم في المجتمع»، وفهم «قوامة الرجل في الأسرة» على أنها «قهر المرأة» وحبسها في البيت، ومنعها من التعلم والعمل. إلى غير ذلك من أنواع التردي الفكري والخلقي، الذي أشاع النزعة الأنانية والسلبية، وأمات الروح الجماعية والجهادية في الأمة، حتى انتشرت فيها مثل هذه الأمثال: «إذا كان لك عند الكلب حاجة، قل له: يا سيدي! دارهم ما دمت في دارهم، اللي يتزوج أمي أقول له: يا عمي، العين لا تعلو على الحاجب».

كان ذلك هو وضعنا عندما جاء الاستعمار إلينا، كنا في الحالة التي سماها المفكر الجزائري مالك بن نبي «قابلية الاستعمار»، وهي التي شرحها المفكر المصري الشيخ محمد الغزالي في أول كتاب له «الإسلام والأوضاع الاقتصادية»، حين ذكر أن الأمم يهزمها الأعداء، ويقهرها الاحتلال، بعد أن يصيبها الاختلال والاعتلال، واستدل على ذلك بما ذكره القرآن في أوائل سورة الإسراء في قصة بني إسرائيل، حين أفسدوا في الأرض مرتين، فسلط الله عليهم في كلِّ مرَّة من يحتل الأرض، ويجوس خلال الديار، ويتحكم في الرقاب، وكان وعدًا مفعولًا[1].

وكان الغرب عندما غزانا في أوج قوَّته، فلا عجب أن تنتصر القوة على الضعف، والقدرة على العجز، والعلم على الجهل، والنظام على الفوضى، والانضباط على التسيب.

(١) الإسلام والأوضاع الاقتصادية للشيخ محمد الغزالي صـ ٨٠، ٨١، نشر نهضة مصر، ٢٠٠٢م.

QaradawiBooks.com

ولا غــرو أن يبهر الغرب بمعارفه وثقافته الأفــكار، ويخطف ببريقه الأبصار، وأن يشــعر المغــزوون بدونيتهــم أمام علــوه، وبوهنهم أمام جبروته، وأن يظنــوا أن قوته الماديــة دليل على قوتــه المعنوية، فأخذ الكثيرون ـ وخصوصًا من علية القوم، والطبقات التي يسمونها «الراقية» ـ يقلدونه ويحاكونه في التفكير وفي السلوك، والمغلوب ـ كما يقول ابن خلدون ـ مولع بتقليد الغالب[١].

والفرق بين تأثير الفلسفة اليونانية قديمًا في المسلمين، وتأثير الثقافة والحضــارة الغربية حديثًا: أن تأثير الفلســفة اليونانيــة كان في الخاصة وربما خاصة الخاصة.

أما تأثير الثقافة الغربية في العصر الحديث، فهو تأثير كاسح غالب، أثَّر في النخب، كما أثَّر في الجماهير، وإن كان تأثيره في النخب أوضح وأقوى؛ ولعل سبب هذا أن لدى عصرنا وسائل للتأثير الفكري والثقافي ولإشاعته وتعميمه، لم يكن يملكها السابقون، وهي: مؤسسات التعليم والثقافة والإعلام، وأدواتها الجبارة.

وعلى الحرَّاس الأمناء الأيقاظ لعقل الأمــة وضميرها، أن يحافظوا عليهما من الاختراق، وأن يقفــوا بالمرصاد لمواجهة هذا الغزو الخطير، وخصوصًا اليوم في عصر ما يســمونه «العولمة» التي تنفِّقها أمريكا في العالم، وهي عولمة اقتصادية واجتماعية وسياسية وثقافية[٢].

(١) مقدمة ابن خلدون صـ ١٥٦، نشر مؤسسة الرسالة، سوريا، ط١، ١٤٢٦هـ ـ ٢٠٠٥م.

(٢) انظر كتابنا: المســلمون والعولمة، وخصوصًا فصل: عولمة الثقافة صـ٤٦ ـ ٧٣، نشــر دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة.

QaradawiBooks.com

والذي يهمنا منها هنا، هو: الجانب الثقافـــي، الذي به تتمايز الأمم بعضها عن بعض، ونحن أمة لنا رسالتنا المتميزة، التي كنا بها أمة وسطًا، وكنا شـــهداء على الناس، وخير أمة أخرجت للناس، لا بعرق ولا بلون ولا بأرض، ولكن برسالتنا الربانية الإنسانية الأخلاقية العالمية المتوازنة والمتكاملة، والتـــي عبَّرت عنها ثقافتنا الأصيلة، المســـتمدة من ينابيعنا الصافية، هذه الثقافة المعتزة بذاتها، الشـــامخة بأصولها، المنفتحة على غيرهـــا، ولكنها ترفض رفضًـــا باتًّا أن تـــذوب في غيرهـــا، وأن تضيع شخصيتها، وتفقد مقوماتها وخصائصها الذاتية.

فهذا هو شـــعارنا الذي يجب أن نعلنه ونتمســـك به في التعامل مع الثقافات المختلفة وهو: تماسك بلا انغلاق، وانفتاح بلا ذوبان.

* * *

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

نمـاذج من تراثنـا

- تمهيد.
- أبو حامد الغزالي.
- أبو الوليد ابن رشد.

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

غير مرخصة للطباعة

تمهيـــد

في تراثنا الغني أمثلة ونماذج شتى لرجال كبار، انفتحوا على ثقافات الأمم، واطلعوا عليها، واقتبسوا من حقِّها وصوابها، وأعرضوا عن باطلها وخطئهـــا، وكل فكر بشـــري معرَّض للصـــواب وللخطأ، والاســـتقامة والانحراف، والحكيم البصير هو مَن يأخذ الصواب من كلِّ ثقافة ويَدَع خطأها، ويســـتفيد من فكرها المســـتقيم، ويضرب صفحًـــا عن المائل والمنحرف.

حتى الكتب الدينية غير المعصومة وغيـــر المضمونة الحفظ من الله تبارك وتعالى، دخلها التحريف والتبديل، اللفظي والمعنوي، فلا يؤخذ كلُّ ما فيها على أنه من كلمات الله سبحانه، بعد أن استيقنا بالأدلة العقلية والنقلية: أنها اختلطت بأقوال البشر، وأوهام البشر، وأهواء البشر.

ولا حرج على الراســـخين في العلم أن يقرؤوا ما شـــاؤوا من كتب الدين والدنيا، ما دامـــوا يقفون على أرض صلبة، مـــن العلم المتمكِّن، والفكر الأصيل، والقلب المطمئن باليقين.

من هذه النماذج في تراثنا، أكتفي بذكـــر عَلَمين اثنين لهما مقامهما ووزنهما، الراجح عند علماء أمتنا، وأثرهما البارز في تراثها، وإن اختلف

QaradawiBooks.com

في شأنهما الناس، كما هو شأن العظماء من الرجال في كل زمان ومكان: عَلَم من المشرق الإسلامي، وعَلَم من مغربه، وهما:

* الإمام أبو حامد الغزالي (ت ٥٠٥هـ).
* الإمام أبو الوليد ابن رشد الحفيد (ت ٥٩٠هـ).

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

غير مرخصة للطباعة

أبـو حامـد الغزالـي

أما إمامنا الأول أبو حامـد الغزالي، الذي منحـه علماء الأمة لقب «حجة الإسـلام» فقـد رأينا كيف خـاض لجـج الثقافـات المتباينة، والفلسفات المتنوعة، وخرج من هذه السباحة بحمد الله تعالى سليمًا، لم يغرق في يمِّها، ولم تبتلعه حيتانها، بل صاد من لآلئها ما صاد، واكتشف من أعماقها ما اكتشف، وقد حكى ذلك عن نفسه في مقدمة كتابه البديع الذي يروي فيه سـيرته الذاتية «المنقذ من الضلال». قال رَحِمَهُ اللَّهُ: «سألتني أيها الأخ فـي الدين، أن أبـث إليك غايـة العلوم، وغائلـة المذاهب وأغوارها، وأحكي لك ما قاسيتُه في استخلاص الحقِّ من بين اضطراب الفرق، مع تباين المسالك والطرق، وما استجرأتُ عليه من الارتفاع عن حضيض التقليد، إلى يفاع[1] الاستبصار.

وما استفدته أولًا من علم الكلام.

وما اجتويتـه[2] ثانيًا: من طرق أهل التعليـم، القاصرين لدَرَك الحق على تقليد الإمام.

وما ازدريته، ثالثًا: من طرق التفلسف.

(١) اليفاع: ما ارتفع من الأرض، مختار الصحاح مادة (ي. ف. ع).

(٢) تقول: اجتويت البلد إذا كرهت المقام به، وإن كنت في نعمة. مختار الصحاح مادة (ج. و. ى).

QaradawiBooks.com

وما ارتضيته، آخرًا: من طريقة التصوف.

وما انجلى لي في تضاعيف تفتيشي عن أقاويل الخلق، من لباب الحق.

وما صرفني عن نشر العلم ببغداد، مع كثرة الطلبة.

وما ردني إلى معاودتي، «بنيسابور» بعد طول المدة.

فابتدرت لإجابتك إلى مطلبك، بعد الوقــوف على صدق رغبتك، وقلت مستعينًا بالله، ومتوكلًا عليه، ومستوفقًا منه، وملتجئًا إليه: اعلموا أحسن الله تعالى، إرشادكم، وألان للحق قيادكم: أن اختلاف الخلق في الأديان والملل، ثم اختلاف الأمة في المذاهــب مع كثرة الفرق وتباين الطرق، بحر عميق، غرق فيه الأكثرون، ومــا نجا منه إلا الأقلون، وكل فريق يزعم أنه الناجي، و﴿كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٣].

ولم أزل في عنفوان شبابي ـ منذ راهقت البلوغ، قبل بلوغ العشرين، إلى الآن، وقد أناف السن على الخمسين ـ أقتحم لجة هذا البحر العميق، وأخوض غمرته خوض الجســور، لا خوض الجبان الحذور، أتوغل في كل مظلمة، وأتهجم على كل مشكلة، وأتقحم كل ورطة، وأتفحص عن عقيدة كل فرقة، وأستكشــف أســرار مذهب كل طائفة، لأميز بين محق ومبطل، ومتسنن ومبتدع.

لا أغادر باطنيًّا إلا وأحب أن أطلع على باطنيته.

ولا ظاهريًّا إلا وأريد أن أعلم حاصل ظاهريته.

ولا فلسفيًّا إلا وأقصد الوقوف على فلسفته.

ولا متكلمًا إلا وأجتهد في الاطلاع على غاية كلامه ومجادلته.

QaradawiBooks.com

ولا صوفيًّا إلا وأحرص على العثور على سرِّ صفوته.

ولا متعبدًا إلا وأترصد ما يرجع إليه حاصل عبادته.

ولا زنديقًا معطلًا إلا وأتحسس وراءه للتنبه لأسباب جرأته، في تعطيله وزندقته.

وقد كان التعطش إلى درك حقائق الأمور دأبي وديدني، من أول أمري، وريعان عمري، غريزة وفطرة من الله، وضعها في جبلتي، لا باختياري وحيلتي؛ حتى انحلت عني رابطة التقليد، وانكسرت عليَّ العقائد الموروثة، على قرب عهد سن الصبا، إذ رأيت صبيان النصارى: لا يكون لهم نشوء إلا على التنصّر، وصبيان اليهود، لا نشوء لهم إلا على التهود، وصبيان المسلمين لا نشوء لهم إلا على الإسلام، وسمعت الحديث المروي عن رسول الله ﷺ حيث قال: «**كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهوِّدانه، أو ينصِّرانه، أو يمجِّسانه**»[1].

فتحرك باطني إلى حقيقة الفطرة الأصلية، وحقيقة العقائد العارضة بتقليد الوالدين والأستاذين، والتمييز بين هذه التقليدات، وأوائلها تلقينات، وفي تميز الحق منها عن الباطل اختلافات.

فقلت في نفسي: أولًا، إنما مطلوبي: العلم بحقائق الأمور، فلا بد من طلب حقيقة العلم: ما هي؟

فظهر لي: أن العلم اليقيني: هو الذي ينكشف فيه المعلوم انكشافًا لا يبقى معه ريب، ولا يقارنه إمكان الغلط والوهم. ولا يتسع القلب لتقدير ذلك، بل الأمان من الخطأ ينبغي أن يكون مقارنًا لليقين، مقارنة

(١) متفق عليه: رواه البخاري في الجنائز (١٣٥٨)، ومسلم في القدر (٢٦٥٨)، عن أبي هريرة.

غير مرخصة للطباعة
نسخة تجريبية
QaradawiBooks.com

لو تحدى بإظهار بطلانه ـ مثلًا ـ من يقلب الحجر ذهبًا والعصا ثعبانًا، لم يورث ذلك شكا وإنكارًا، فإني إذا علمت، أن العشرة: أكثر من الثلاثة، فلو قال لي قائل: لا بل الثلاثة أكثر، بدليل أني أقلب هذه العصا ثعبانًا. وقلبها، وشاهدت ذلك منه، لم أشك ـ بسببه ـ في معرفتي، ولم يحصل لي منه إلا التعجب من كيفية قدرته عليه. فأما الشك فيما علمته، فلا.

ثم علمت: أن كل ما لا أعلمه على هذا الوجه، ولا أتيقنه هذا النوع من اليقين، فهو علم لا ثقة به، ولا أمان معه، وكل علم لا أمان معه، فليس بعلم يقيني»[1] اهـ.

اطلع الغزالي على الثقافات والفلسفات باتجاهاتها وألوانها المختلفة، من «الباطنية» التي أبطلت دلالات الألفاظ، وأفقدت اللغة مهمتها، في البيان والإفهام، إلى «علوم الأوائل» أي القدماء، ويعنون بذلك: الفلاسفة وخصوصًا اليونانيين منهم، ولا سيما فلسفة «أرسطو» الذي سماه الفارابي «المعلم الأول». وقد تجسَّدت هذه الفلسفة أوضح ما تكون لدى الفيلسوف الأكبر أبي علي ابن سينا، الذي فُتن كثير من الناس به.

واطَّلع الغزالي كذلك على علم الكلام وتزود منه، وقد كان شيخه إمام الحرمين أحد أعلام هذا العلم، وممثِّل المدرسة «الأشعرية» التي تبنَّتها المدرسة «النظامية» التي أسسها الوزير الشهير نظام الملك السلجوقي، وكان الغزالي أبرز أساتذتها.

واطلع الغزالي على الفقه، والتزم مذهب الشافعي، تبعًا لبلده وشيوخه، وصنَّف فيه كتبًا اشتهرت فيه، وقال فيها القائل:

(١) المنقذ من الضلال صـ ١٠٧ ـ ١١١.

QaradawiBooks.com

هـــذَّب الـــمـــذهـــبَ حَـبْـر أحـــســـن الله خـــلاصَـــه
بـــبـــســـيـــط ووســـيـــط ووجـــيـــز وخـــلاصـــة[١]

وشرح وجيزه العلامة الرافعي بكتابه «فتح العزيز في شرح الوجيز»، ولكن أظهر ما يتجلى فقه الغزالي حقًّا في «الإحياء»، فقد تحرر فيه من سلطان المذهبية، ونظر في الفقه نظرة رحبة، وقال في «الطهارة»: كنت أود أن يكون مذهبه كمذهب مالك رضي الله عنه، في أن الماء وإن قلَّ لا ينجس إلا بالتغير إذ الحاجة ماسة إليه. وأيد مذهب مالك بسبعة أوجه[٢]. وكذلك في مواضع أخرى.

وفي بعض القضايا نظر إليها من أفق واسع، ودلَّل ووازن واجتهد ورجَّح، كما في قضايا مثل: الغناء أو السماع، والعزلة وغيرهما.

كما اطَّلع الغزالي على تراث الصوفية، الذي أعجب به كلَّ الإعجاب، وأخذ عليه عقله وقلبه، ورست عند شاطئه سفينته، التي عصفت بها رياح الشكِّ، وأحاطت بها أمواج الحيرة من كلِّ مكان. فوقف عند التصوف، وكان كما قال الشاعر:

فألقت عصاها واستقرَّ بها النوى كما قرَّ عينًا بالإياب المسافر[٣]!

ومع هذا لم يسلم الغزالي، بعد خوض هذه اللجج العميقة، ومقارعة هذه التيارات والأمواج المتلاطمة، من أن يصيبه بعض الآثار، أو بعض

(١) من قول أبي حفص عَمْرو بن عبد الْعَزِيز بن عبيد بن يُوسُف الطرابلسي، كما في طبقات الشافعية الكبرى لابن السبكي (٢٢٣/٦)، تحقيق د. محمود محمد الطناحي ود. عبد الفتاح محمد الحلو، نشر دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع، ط٢، ١٤١٣هـ.

(٢) إحياء علوم الدين (١٢٩/١)، نشر دار المعرفة، بيروت.

(٣) البيت لمعقِّر بن حمار البارقي، انظر: المؤتلف والمختلف في أسماء الشعراء للآمدي صـ ١١٦، تحقيق أ. د. ف. كرنكو، نشر دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٩١م.

QaradawiBooks.com

الجراحات، وإن لم يعترف هو بشـــيء من ذلك. ولكن شأن الإنسان أن يتأثَّر ويؤثِّر، شعر أم لم يشعر، وإن لم يكن ذلك بطريق مباشر.

وهذا ما جعـــل تلميـــذه المغربـــي القاضـــي أبا بكر ابـــن العربي (ت ٥٤٣هـ) يقول عنه: شيخنا أبو حامد ابتلع الفلاسفة، وأراد أن يتقيَّأهم، فما استطاع!

وحكى شيخ الإســـلام ابن تيمية (ت ٧٢٨هـ) قول ابن العربي بعبارة أخرى فقال: أبو حامد دخل في بطون الفلاسفة، ثم أراد أن يخرج منهم، فما قدر[١].

* * *

(١) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية صـ ٥، تحقيق محمد رشـــاد سالم، نشر جامعة الإمام محمد بن سعود، ط١، ١٣٩٩هـ ـ ١٩٧٩م.

QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

أبـو الوليد ابن رشد

ومن النمـاذج التي تجسِّـد «الانفتـاح الثقافي» في تراثنـا: الإمام أبو الوليد محمد بن أحمد بن رشـد (الحفيد) المتوفى في أواخر القرن السادس الهجري (ت ٥٩٥هـ).

وإنما أطلق عليه «الحفيد»؛ لأن جده ابن رشـد يشترك معه في اسـمه واسـم أبيه، وكان من كبار أئمة المالكية، ومن مؤلفاتـه في فقـه المالكية «المقدمـات الممهدات» و«البيـان والتحصيل» فـي عشرين مجلدًا.

وإذا كان ابن رشـد الجد فقيهًا معدودًا من كبـار الفقهاء، فإن حفيده لـم يكتفِ بالفقه وحـده، مثل جده، بل تعـدَّاه إلى ميادين أخرى من ميادين الفكر والثقافة، جعلته يعدُّ أحد «الموسـوعيين» الكبار في تاريخنا.

اتفق ابن رشد مع الغزالي في اشتغاله بالفقه، ولكن الغزالي ألَّف في فقه الشافعية عدة كتب، أشرنا إليها من قبل.

أما ابن رشـد فلم يؤلِّف في فقه المالكية كجدِّه، مع أنه كان قاضيًا شـرعيًّا، ولا بد أنه كان يقضي وَفق المذهب المالكـي المتبوع. مع أنه وعد خلال كتابته لبدايـة المجتهد أن يكتب في فقه مالك إذا أنسـأ اللهُ

QaradawiBooks.com

أجلَه، ويسَّر له الأسباب[١]، ولكن الأقدار لم تمكنه من الوفاء بما وعد. بل ألف كتابًا في «الفقه المقارن» كتبه بعقلية الفيلسوف الأصيل، وملكة الفقيه المتضلِّع، ودلَّ به على سَعَة اطلاعه على المذاهب، وعلى أسباب اختلافها، معتمدًا أساسًا على «الاستذكار» لابن عبد البر، كما دلَّ على قدرته على رد الأقوال إلى جذورها، وبيان سبب الخلاف فيها: أهو أصولي أم فقهي أم حديثي؟ إلى آخره. مع حياد وموضوعية، دون تعصُّب لمذهب على آخر، ولا لفقيه ضد غيره.

وقد جعل للكتاب اسمًا يدلُّ على غرضه منه، وهو «بداية المجتهد ونهاية المقتصد»، فهو مقدِّمة لمَن يريد أن يلجَ باب الاجتهاد، إذ لا يدخله إلا مَن اطلع على اختلاف العلماء، وعرف تعدُّد مشاربهم، وتنوُّع أدلتهم. فمَن لم يعرف اختلاف الفقهاء فهيهات أن تشمَّ أنفه رائحة الفقه.

وأما مَن أراد الاقتصار والاقتصاد، ولم تعلُ همته إلى بلوغ الاجتهاد، فهذا الكتاب يكفيه، بل هو نهاية ما يبتغيه. وقد ذكر ابن رشد في نهاية «كتاب العتق»: أن في قوة هذا الكتاب «البداية» أن يبلغ الإنسان ـ كما قلنا ـ رتبة الاجتهاد، إذا تقدم فعلم من اللغة العربية، وعلم من أصول الفقه ما يكفيه في ذلك. ولذلك رأينا أن أحق الأسماء بهذا الكتاب: أن نسميه كتاب «بداية المجتهد وكفاية المقتصد»[٢]. ولكن الكتاب اشتهر بـ «نهاية المقتصد».

وكتاب «البداية» فريد في بابه، لم يقلِّد فيه ابن رشد أحدًا قبله، ولم ينسج على منواله أحد بعده فيما نعلم. قال عنه ابن الأبَّار: أعطى فيه

(١) انظر: بداية المجتهد (٢٢٦/٤)، نشر دار الحديث، القاهرة، ١٤٢٥هـ ـ ٢٠٠٤م.

(٢) بداية المجتهد ونهاية المقتصد لابن رشد (١٦٩/٤).

QaradawiBooks.com

أسباب الخلاف، وعلَّل فوجَّه، فأفاد وأمتع به، ولا يعلم في فنه أنفع منه، ولا أحسن مساقًا[١] انتهى. وصدق ابن الأبَّار فيما وصفه به.

وهو جدير بالدراسة التحليلية في أطروحة أكاديمية أو أكثر، وربما قدم ذلك بعض الدارسين.

وقد وعد ابن رشد في أكثر من موضع من «البداية» أن يؤلف كتابًا في الفقه المالكي، فقال مرة في آخر كتاب العتق: «ونحن ننوي ـ إن شاء الله ـ بعد فراغنا من هذا الكتاب، أن نضع في مذهب مالك كتابًا جامعًا لأصول مذهبه، ومسائله المشهورة، التي تجري في مذهبه مجرى الأصول للتفريع عليها»[٢].

وعاد بعد ذلك في آخر «كتاب القذف» وقال: «وإن أنسأ الله في العمر، فسنضع كتابًا في الفروع على مذهب مالك بن أنس، مرتبًا ترتيبًا صناعيًّا «وفق صناعة المنهج الفقهي» إذ كان المذهب المعمول به في هذه الجزيرة ـ التي هي جزيرة الأندلس ـ حتى يكون به القارئ مجتهدًا في مذهب مالك؛ لأن إحصاء جميع الروايات عندي شيء ينقطع العمر دونه»[٣].

وقد كان أهلًا لأن يفعل ذلك، وقد ورث الفقه المالكي كابرًا عن كابر، عن أبيه وجده، وطبقه عمليًّا في القضاء، ولكن يبدو أن مشاغله العلمية وسعتها وتنوعها لم تمكنه من تحقيق رجائه.

---

(١) التكملة لكتاب الصلة لابن الأبار (٧٤/٢)، تحقيق عبد السلام الهراس، نشر دار الفكر للطباعة، لبنان، ١٤١٥هـ ـ ١٩٩٥م.

(٢) بداية المجتهد ونهاية المقتصد (١٦٩/٤).

(٣) بداية المجتهد (٢٢٦/٤).

غير مرخص للطباعة
نسخة تجريبية
QaradawiBooks.com

مجال العلميات:

والمجال الثاني الذي برع فيه ابن رشد هو «المجال العلمي» بالمفهوم الغربي الحديث للعلم، وهو ما يقوم على المشاهدة والتجربة، وعلى أساسه كانت النهضة الأوروبية الحديثة.

وقد كان هذا «العلم» قديمًا محسوبًا من شُعَب «الفلسفة». وهي «الفلسفة الطبيعية»، و«الفلسفة الرياضية». وإنما انفصل عنها في العصر الحديث، وهو الصواب.

وقد بدأت عناية ابن رشد بهذا النوع من العلوم التجريبية منذ شبابه، فعني بالفلك، ثم عني بالطب، وألف كتابه «المختصر» في «علم الفلك»، وكذلك رسالة في «المثلثات الكروية»، و«تلخيص السماء والعالم» لأرسطو، و«الجوامع» وغيرها، وكان له فيها نظرات تخالف الاتجاه السائد لبطليموس، وفيها طموح إلى تصحيح علم الفلك السائد في عصره.

وألف كتابه «الكليات» في الطب. وأراد به أن يجمع أصول هذا العلم لا فروعه وتفاصيله، فقد أجَّل ذلك إلى وقت لاحق. وله في علم الطب نظرات تخالف ما ذهب إليه ابن سينا في تأثير القمر على الإنسان، فهذا أقرب إلى التنجيم منه إلى الطب، كما انتقد الكندي حين ابتعد في علم الأدوية عن التجربة[١].

وقد كان ابن رشد مولعًا ببيان «الأصول» أو «الضروري» أو «الكليات» في شتى نواحي المعرفة: الشرعية والعلمية والعملية والفلسفية. وذلك لسببين:

(١) انظر كتاب: ابن رشد سيرة وفكر دراسة ونصوص د. محمد عابد الجابري صـ ٢١٩ وما بعدها، فصل: الاجتهاد في علم الفلك وعلم الطب، نشر مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط١، ١٩٩٨م.

QaradawiBooks.com

الأول: أهمية الأصول، وضرورتها في التأسيس عليها. فإذا اتضحت الأصول، لم يصعب معرفة الفروع.

والثاني: ضيق وقته عن الدخول في تفصيل الفروع، فيقدم الأهم على المهم.

وكان كتاب ابن رشد في الطب مرجعًا للغربيين لعدة قرون، وقد ترجم إلى اللاتينية، واستفاد منه الطلاب والدارسون هناك.

مجال الفلسفيات:

والمجال الثالث الذي برع فيه ابن رشد، وتفوَّق فيه، وعرف به في الشرق والغرب، هو: مجال الفلسفة، حتى عدَّه بعض الكتاب الغربيين أعظم فلاسفة الإسلام على الإطلاق.

ولقد تجلَّى ذلك في شروحه على «أرسطو» الملخصة والمفصلة، فهو أعظم شراح أرسطو من غير شك، وعن طريق شروحه وصلت فلسفة أرسطو وعلومه إلى أوروبا، وأسهمت في نهضتها.

وقد أخذت هذه الشروح من الفيلسوف المسلم وقتًا وجهدًا طويلين، فقد كان أرسطو ـ كما يقول مؤرخوه ـ لا يكتب بنفسه محررًا أفكاره بقلمه، بل يلقي دروسه في الحديقة ماشيًا، ذاهبًا وآيبًا، وتلاميذه من حوله، ولذا أطلق عليهم «المشَّاؤون» وتلاميذه يكتبون ويصوغون ما سمعوه منه، لذا اختلفت عباراتهم، فكل يكتب حسب ما فهم، أو حسب ما سمع، أو حسب ما استطاع التعبير عنه. ولهذا شكا قراء أرسطو وشراحه من قديم ـ ومنهم ابن رشد ـ كثيرًا من غموض عبارته، وعدم وضوح المراد منها بسهولة.

كما تجلت فلسفة ابن رشد في كتاباته الإسلامية حول الفلسفة وما يتعلق بها، مثل كتابه الصغير الحجم «فصل المقال في تقرير ما بين

QaradawiBooks.com

الشـــريعة والحكمة مـــن الاتصـــال»، وإن كان الدكتـــور محمد عابد الجابري ـ وهو أستاذ فلسفة ودارس متعمق لا بن رشد ـ يحسب هذا الكتاب في الكتب الشرعية، لا في الكتب الفلسفية، وأنه في حقيقته فتوى شرعية في وجوب النظر في كتب الفلسفة أو كتب «الأوائل» كما كانوا يسمونها[١].

ومثال ذلك كتابه «الكشـــف عن مناهج الأدلة في عقائد أهل الملة»، وهو يرد على المتكلمين من الأشـــاعرة، الذين شـــاع مذهبهم في ذلك الوقت، وأصبح هو المذهب الرســـمي لأهل الســـنة فـــي معظم العالم الإسلامي (مع مذهب الماتريدية وهو قريب من مذهب الأشاعرة، إلا في مواضع محدودة).

وكتاب ابن رشـــد هذا كتاب نافـــع متوازن، ويجب الاســـتفادة منه لطلاب العلم.

وكتابه الثالث، هو «تهافت التهافت» الـــذي ردَّ فيه على الغزالي في كتابه «تهافت الفلاسفة» الذي أحدث ضجة حين ظهوره، وقيل عنه: إنه ضرب الفلسفة ضربة قاضية، وقد بينا في كتابنا عن «الإمام الغزالي بين مادحيه وناقديه» أن هذا إن صدق في الشرق، فلم يصدق في الغرب، فقد ظهر فيه فلاســـفة كبار، أمثال ابن باجة وابن طفيل، وآخرهم الفيلسوف الكبير ابن رشد.

كان الغزالي قد خطأ الفلاســـفة في سبع عشـــرة مسألة، وكفرهم في ثلاث مســـائل، هي: قولهم بقدم العالم، وأن الله لا يعلم الجزئيات، وأن المعاد في الآخرة معاد روحاني لا جسماني.

(١) ابن رشد سيرة وفكر صـ ٢٦٩ ـ ٢٧٣.

QaradawiBooks.com

دافع ابن رشد عن الفلاسفة دفاعًا حارًّا، وانتصر لهم بقوة، وبيَّن أن الغزالي لم يقرأ «أرسطو» في كتبه، وإنما قرأ ابن سينا، وكلُّ ما يذكره عن الفلاسفة إنما هي آراء ابن سينا.

وفي رأيي أن هـذا يكفي الغزالي، فابن سـينا كان أكبر فيلسـوف إسلامي في وقته، وكانت فلسفته هي النافقة لدى المثقفين.

وأخذ ابن رشـد على الغزالي أنه لم يستخدم «المنهج العلمي» الصارم في الرد على الفلاسفة، بل أجلب عليهم بخيله ورجله، وبما يؤمن به، وما لا يؤمن به، مـن أي مذهب، وأي نحلة تنتحلها فرقة من فرق الإسلام، وهو ما صرح به الغزالي حين قال: «وأنا لا أدخل عليهم ـ أي الفلاسفة ـ إلا دخول مطالب منكر، لا مدع مثبت فأبطل عليهم ما اعتقـدوه مقطوعًا «بـه» بإلزامات مختلفة. تـارة ألزمهم مذهب المعتزلة، وأخرى مذهب الكرَّامية، وطورًا مذهب الواقفية، ولا أنتهض ذابًّا عن مذهب مخصوص، بل أجعل جميع الفرق إلْبًا واحدًا عليهم، فإن سـائر الفرق ربما خالفونا في التفاصيل، وهؤلاء يتعرَّضون لأصول الديـن، فلنتظاهر عليهم، فعند الشـدائد تذهب الأحقاد»[1] انتهى.

والحق أن ابن رشـد في رده على الغزالي، وفي كتبه الفلسفية هذه، يبدو أقرب إلى الاعتدال والمنهجية، وأبعد عـن التحيز والتطرف، وإن كان يؤخذ عليه تأثره البالغ بالفلسـفة، حتى إنه جعـل النظر في كتبها واجبًا شرعيًّا، ولو قال: إنه جائز ومشروع لمَن استجمع شروطًا معينة من العلماء. لقلنا: هذا معقول ومقبول، أما اعتبار ذلك واجبًا شرعيًّا، وفرضًا

(١) تهافت الفلاسفة للغزالي صـ ٨٢، ٨٣، تحقيق د. سليمان دنيا، نشر دار المعارف، مصر.

QaradawiBooks.com

دينيًّا، فهو ما يتوقف فيه كثير من العلماء[١]. إذ معناه أن الإسلام في حاجة لازمة للنظر الفلسفي، والاطلاع على أرسطو ورفقائه، حتى تثبت صحته بالبرهان العقلي: وهو قول خطير، ولا دليل عليه. والإسلام مستغنٍ بذاته عما سواه، ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣].

ولعل من أسباب هذا هو الإعجاب المنقطع النظير من ابن رشد بأرسطو، حتى إنه رفعه مكانًا عليًّا، وارتقى به في الكمال الإنساني إلى الذروة. وما يدريه رَحِمَهُ ٱللَّهُ أن كثيرًا مما قاله أرسطو اليوم ـ في شكل الكون ومركز الأرض والأفلاك والعناصر وغيرها ـ لم يعد مقبولًا لدى تلاميذ المدارس الإعدادية. فهي آراء بشر غير معصوم، محكوم بزمانه ومكانه وثقافة عصره، وإن علا كعبه في العلم والفكر.

نقرأ هنا بعض ما كتبه ابن رشد عن شيخه أرسطو، لنرى مدى الإعجاب الذي يكاد يصل إلى حد التقديس، نقلًا عن مؤرخ ابن رشد المعجب به غاية الإعجاب الدكتور الجابري، حيث قال: «ولعل أقوى عبارة لابن رشد في الثناء على أرسطو وردت في نصوصه المتوفرة بلغتها الأصلية العربية[٢] هي ما كتبه، عندما كان بصدد عرض وجهة نظر أرسطو

(١) يمكن حمل رأي ابن رشد على وجوب استفادة علماء المسلمين ـ وبخاصة كبارهم ومحققوهم ـ من ثقافات الأمم الأخرى، مما فيها من حق لا تخلو منه ثقافة أمة، مع ضرورة الحذر من أباطيل العقائد والفلسفات الأخرى أن تتسرب إلى الثقافة الأساسية للأمة، وتؤثر في مسيرتها العقائدية والفكرية. ولهذا ندعو إلى التفاعل مع الثقافة الغربية، ونحذر من غزو هذه الثقافة لنا، أو تبعيتنا لها.

(٢) هناك عبارات نقلها «رينان» عن ترجمات لاتينية لنصوص ابن رشد مثل هذا النص المنقول من كتاب «الكون والفساد» De gene Animal 1.1 والذي ورد فيه: «نحمد الله حمدًا لا نهاية له الذي خلق هذا الرجل بالفطرة للفضل وأنزله المرتبة العليا في الكمال الإنساني لم يبلغها =

QaradawiBooks.com

في «الهالة وقوس قـزح والعمود»، في تلخيصه لكتـاب «الآثار العلوية» لأرسـطو، حينما حرص على التمييز بين ما يعطيه النظر في هذه الظواهر لصاحب العلم الطبيعي وما يعطيه لصاحب «علم المناظر» «علم الضوء»، باعتبار أن الأمر يتعلق بمنظورين مختلفين، أحدهما ينتمي إلى الطبيعيات والآخر إلى الرياضيات». ولذلك ـ يقول ابن رشد ـ فـ «مَن جمع النظرين فقد أخطأ كما فعل ابن الهيثم، فإن النظـر في ذلك لصناعتين مختلفتين، وليس يدخل ما تبين من ذلك في صناعة المناظر على هذه الصناعة «العلم الطبيعـي». وهكذا فإذا فهمت وجهة نظر أرسـطو داخـل العلم الطبيعي وحده، ارتفعت الشكوك التي يمكن أن تثار عليه في هذه المسألة».

ويقول ابن رشـد: «فهكذا ينبغي أن يفهم الأمر عن أرسطو في هذه الأشـياء، لا أنه قصر في ذلك وترك شـيئًا يجب ذكره فـي هذا العلم (وغيره)، فسـبحان الذي خصه بالكمال الإنسـاني، وكان المدرك عنده بسـهولة هو المدرك عنـد الناس بعد فحـص طويل وصعوبـة كثيرة، والمدرك عند غيره بسـهولة خلاف المدرك عنده. ولذلك كثيرًا ما ينشأ للمفسـرين شـكوك على أقاويل هذا الرجل، ثم يتبين بعد زمن طويل صواب قوله، وتقصير نظر الغير بالإضافة إلى نظره.

وبهذه القـوة الإلهية التي وجـدت فيه كان هو المجـدد للحكمة والمتمم لها، وذلك شـيء يقل وجوده في الصنائع، أي صناعة كانت،

= أحد في أي زمن. فإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُ﴾ [الحديد: ٢١].
وينقل عن ترجمة لاتينية لكتابه «تهافت التهافت» عبارة لا توجد في النص الأصلي العربي ورد فيها: «إن مذهب أرسـطو هو الحقيقة المطلقة، وذلك لبلوغ عقله أقصى حدود العقل البشري، ولذا فإن من الحق أن يقال عنه: إن العناية الإلهية أنعمت به علينا لتعليمنا ما يمكن أن نتعلم» رينان. (الجابري).

QaradawiBooks.com

فكيف في هذه الصناعة العظمى؟ وإنما قلنا: إنه المجدد والمتمم، لأن ما سلف لغيره في هذه الأشياء، ليست تستأهل أن تجعل شكوكًا على هذه الأشياء، فضلًا عن أن تكون مبادئ.

وإذ قد تبين هذا فإذن ليس في أقاويل أرسطو شيء يحتاج إلى تتميم، كما زعم أبو بكر ابن الصائغ. نعم فيها أشياء كثيرة لم يفهمها هو ولا نحن بعده، وبخاصة في الكتب التي لم تصل إلينا فيها أقاويل المفسرين، ولذلك كان الواجب عليه أن يستعمل الفحص عن كلامه لا بتلك الأشياء الخارجة عن طريقته في التعليم»[1]،[2] انتهى.

(١) تلخيص الآثار العلوية لابن رشد، صـ ١٤٥ ـ ١٤٦، تحقيق جمال الدين العلوي، نشر دار الغرب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٤م. وقد أورد مونك نصًّا قريبًا جدًّا من هذا نقله من مقدمة ابن رشد لشرح السماع الطبيعي «كتاب الطبيعة» لأرسطو ـ المفقود أصله العربي ـ يقول فيه فيلسوف قرطبة: «مؤلف هذا الكتاب هو أرسطو بن نيقوماخ، فيلسوف اليونان المشهور، الذي ألَّف أيضًا كتبًا أخرى في هذا العلم «الطبيعي»، كما ألَّف كتبًا في المنطق وكتب مقالات فيما بعد الطبيعة. وهو المجدد «renouveler» لهذه العلوم الثلاثة، أعني المنطق والعلم الطبيعي وعلم ما بعد الطبيعة. وهو المتمم لها.

وإنما قلنا إنه المجدد لها؛ لأن ما سلف لغيره في هذه الأشياء لا يستأهل أن يكون مبادئ لهذه العلوم... وعندما ظهرت كتب هذا الرجل ترك الناس كتب جميع مَن سبقوه. ومن بين الكتب التي ألفت قبله، والتي هي في هذه الأشياء أقرب من غيرها إلى الطريقة العلمية كتب أفلاطون، مع أن ما يوجد فيها ليس إلا شيئًا يسيرًا بالمقارنة مع ما نجده في كتب أرسطو، فضلًا عن عدم تمامها من جهة العلم.

وقلنا: إنه المتمم لها؛ لأنه لا أحد ممن جاء بعده إلى زماننا هذا، أعني منذ ما يقرب من خمسة عشر قرنًا، استطاع أن يضيف لما قاله شيئًا ذا بال. وإنه لشيء خارق للعادة وعجيب حقًّا أن يجتمع ذلك كله لشخص واحد. وذلك إنما يكون للكائن الإلهي لا للموجود البشري. ولذلك دعاه القدماء بالإلهي». (الجابري).

(٢) ابن رشد سيرة وفكر دراسة ونصوص صـ ١٧١، ١٧٢.

QaradawiBooks.com

هذه عبارات ابن رشد الفيلسوف الكبير في «أرسطو»: قمة في الكمال العلمي والفكري، لا يستدرك عليه، ولا يحتمل الخطأ، ولا يقبل النقد، وقد خطأ ابن رشد العالم المسلم العظيم الحسن ابن الهيثم، لمخالفته لأرسطو، وخطأ ابن الصائغ لنقده لأرسطو، فالكامل ـ بل البالغ الرتبة العليا في الكمال ـ لا يخالف ولا ينقد، بل على مخالفه أو ناقده أن يتهم نفسه أولًا، فإن مذهبه هو «الحقيقة المطلقة»!

فماذا ترك لمحمد ﷺ، الذي بعثه الله في الناس رسولًا يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، ويعلمهم ما لم يكونوا يعلمون، وقد علَّمه الله ما لم يكن يعلم، وكان فضل الله عليه عظيمًا؟!

ألا ليت فيلسوفنا وعالمنا الكبير ابن رشد، أعطى بعض جهده ووقته للشرعيات، مثلما أعطى للعقليات والفلسفيات، إذن لكان عطاؤه أجزل، ونفع الأمة به أكمل، ولكن هكذا ما كان، وكلٌّ مُيسَّر لما خلق له، ومجزيٌّ بنيته، «**وإنما لكل امرئ ما نوى**»[1]، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظۡلِمُ مِثۡقَالَ ذَرَّةٖۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةٗ يُضَٰعِفۡهَا وَيُؤۡتِ مِن لَّدُنۡهُ أَجۡرًا عَظِيمٗا﴾ [النساء: ٤٠].

* * *

(١) متفق عليه: رواه البخاري في بدء الوحي (١)، ومسلم في الإمارة (١٩٠٧)، عن عمر بن الخطاب.

نسخة مجانية
غير مسموح بطباعة
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

غير مرخصة للطباعة

الفهارس العامة

- فهـرس الآيات القرآنيـة الكريمة.
- فهرس الأحاديث النبوية الشـريفة.
- فهرس الموضوعات.

نسخة مجانية

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

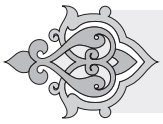

فهرس الآيات القرآنية الكريمة

الآيـــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الفاتحة		
﴿ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾	٢	٣٠
﴿ ٱلصِّرَٰطَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴾	٦	٣٨
سورة البقرة		
﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ﴾	٢١	٣٠
﴿ وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ... ﴾	٣٠ ـ ٣٣	٦٢
﴿ يَسْمَعُونَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُۥ مِنۢ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ ﴾	٧٥	٩٨
﴿ وَمِنْهُمْ أُمِّيُّونَ لَا يَعْلَمُونَ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّآ أَمَانِيَّ ﴾	٧٨	٩٨
﴿ يَكْتُبُونَ ٱلْكِتَٰبَ بِأَيْدِيهِمْ ثُمَّ يَقُولُونَ هَٰذَا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ... ﴾	٧٩	٩٨
﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾	١٤٣	٣٦
﴿ ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ... ﴾	٢٨٥	٤٤

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الآيـــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة آل عمران		
﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ ...﴾	٦٤	٦٥
﴿لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ...﴾	١١٣ ـ ١١٥	٤
سورة النساء		
﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَٰعِفْهَا ...﴾	٤٠	١٢٧
﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾	٤٦	٩٨
سورة المائدة		
﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى ...﴾	٣	١٢٤
﴿يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ﴾	١٣	٩٨
﴿وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ﴾	١٣	٩٨
﴿فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ...﴾	٣١	٥٠
﴿فَإِن جَآءُوكَ فَٱحْكُم بَيْنَهُمْ أَوْ أَعْرِضْ عَنْهُمْ ...﴾	٤٢	٣٢
﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ ...﴾	٤٨	٤٣
سورة الأنعام		
﴿فَإِن يَكْفُرْ بِهَا هَٰٓؤُلَآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا۟ بِهَا بِكَٰفِرِينَ﴾	٨٩	٧٠
﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ...﴾	١٦٢، ١٦٣	١٠
سورة الأعراف		
﴿وَمِمَّنْ خَلَقْنَآ أُمَّةٌ يَهْدُونَ بِٱلْحَقِّ وَبِهِۦ يَعْدِلُونَ﴾	١٨١	٧٠
﴿أَوَلَمْ يَنظُرُوا۟ فِى مَلَكُوتِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾	١٨٥	٤٩

QaradawiBooks.com

الآيـــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة هود		
﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ ...﴾	١١٨، ١١٩	٣١
سورة يوسف		
﴿قَالَ تَزۡرَعُونَ سَبۡعَ سِنِينَ دَأَبٗا فَمَا حَصَدتُّمۡ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ ...﴾	٤٧	٤٧
﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓۚ ...﴾	٥٣	٥٠
﴿ٱجۡعَلۡنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلۡأَرۡضِۖ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٞ﴾	٥٥	٤٧
سورة النحل		
﴿ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ ...﴾	١٢٥	٦٢
سورة الإسراء		
﴿وَلَا تَمۡشِ فِي ٱلۡأَرۡضِ مَرَحًاۖ إِنَّكَ لَن تَخۡرِقَ ٱلۡأَرۡضَ ...﴾	٣٧	١٨
﴿وَلَقَدۡ كَرَّمۡنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾	٧٠	٢٩
سورة الكهف		
﴿أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتۡ لِمَسَٰكِينَ يَعۡمَلُونَ فِي ٱلۡبَحۡرِ فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا ...﴾	٧٩	٤٧
سورة الأنبياء		
﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾	١٠٧	٣٠
سورة المؤمنون		
﴿كُلُّ حِزۡبِۭ بِمَا لَدَيۡهِمۡ فَرِحُونَ﴾	٥٣	١١٢
سورة النور		
﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٖ مِّن مَّآءٖۖ فَمِنۡهُم مَّن يَمۡشِي عَلَىٰ بَطۡنِهِۦ ...﴾	٤٥	١٨

QaradawiBooks.com

الآيـــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة الفرقان		
﴿فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾	٥٩	٨١
﴿ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا﴾	٦٣	١٨
سورة النمل		
﴿فَقَالَ مَالِيَ لَآ أَرَى ٱلْهُدْهُدَ أَمْ كَانَ مِنَ ٱلْغَآئِبِينَ ...﴾	٢٠ ـ ٢٢	٥٠
﴿قَالَتْ إِنَّ ٱلْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا۟ قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا ...﴾	٣٤	٥٠
سورة القصص		
﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَـٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ ۖ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ﴾	٢٦	٤٧
سورة العنكبوت		
﴿وَلَا تُجَـٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ...﴾	٤٦	٦٤، ٦٥
سورة لقمان		
﴿وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ﴾	١٩	١٨
سورة فاطر		
﴿وَلَا يُنَبِّئُكَ مِثْلُ خَبِيرٍ﴾	١٤	٨١
سورة صَ		
﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ۞ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾	٨٢، ٨٣	٦٢
سورة الزمر		
﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ۞ ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥ ۚ ...﴾	١٧، ١٨	٤، ٣٥، ٥٤

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

الآيـــــــــة	رقم الآية	رقم الصفحة
سورة فصلت		
﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾	٥٣	٤٩
سورة الشورى		
﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا ...﴾	١٣	٤، ٤٤
﴿فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ ...﴾	١٥	٣١
سورة الذاريات		
﴿ وَفِى ٱلْأَرْضِ ءَايَٰتٌ لِّلْمُوقِنِينَ ۞ وَفِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ أَفَلَا تُبْصِرُونَ ﴾	٢٠، ٢١	٤٩
سورة الحديد		
﴿ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ﴾	٢١	١٢٥
سورة المدثر		
﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۞ قُمْ فَأَنذِرْ ۞ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۞ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۞ وَٱلرُّجْزَ فَٱهْجُرْ ۞﴾	١ ـ ٧	١٨
سورة العلق		
﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ﴾	١	١٨

* * *

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

فهرس الأحاديث النبوية الشريفة

غير مرخص للطباعة

الحديث	رقم الصفحة
أ	
اتخذ خاتما من فضة، نقشه: محمد رسول الله	٤٦
إذا حدَّث كذب، وإذا وَعَدَ أخلَف، وإذا اؤتمن خان، وإذا عاهد غدر	٢٨
أصدق كلمة قالها شاعر، كلمة لبيد بن ربيعة: ألا كلُّ شيءٍ ما خلا اللهَ باطلُ	٥، ٥١
أليست نفسًا؟	٢٩
أمتهوكون فيها يا ابن الخطاب؟ ـ أي متحيرون ومترددون في ملتكم	٩٣
إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كلِّ مائة سنة مَن يجدِّد لها دينها	٦٧
إن مثلي ومثل الأنبياء من قبلي، كمثل رجل بنى بيتًا فأحسنه وأجمله	٣٧
إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق أو مكارم الأخلاق	٢٨، ٣٦، ٤٤
ب	
بلغوا عني ولو آية، وحدِّثوا عن بني إسرائيل ولا حرج	٩٨
ت	
تقرأ الكتابين: التوراة والقرآن	٩٤

QaradawiBooks.com

الحديث	رقم الصفحة
س	
سَمِّ الله، وكُل بيمينك، وكل مما يليك	١٧
ص	
صَدَقَك وهو كذوب	٥١
ك	
كل مولود يولد على الفطرة، فأبواه يهوِّدانه، أو ينصِّرانه، أو يمجِّسانه	١١٣
الكلمة الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها، فهو أحق الناس بها	٣٧، ٥١
ل	
لا تزال طائفة منها قائمة على الحق، لا يضرهم مَن خالفهم	٧١
لتتبعنَّ سنن من قبلكم شبرًا بشبرٍ، وذراعًا بذراعٍ	٨٠
م	
مثلُ المؤمن مَثَلُ النحلة، لا تأكل إلا طيّبًا، ولا تضع إلا طيّبًا	٥٤
ن	
نحن أولى بموسى منكم	٥
و	
وإنما لكل امرئ ما نوى	١٢٧

❊ ❊ ❊

نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

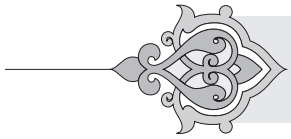

فهرس الموضوعات

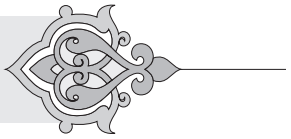

❖ من الدستور الإلهي للبشرية ٤

❖ من مشكاة النبوة الخاتمة ٥

• مقدمة ٧

• ثقافتنا مفهومها وخصائصها ١١

❖ تمهيد ١٣

أهمية هذا البحث في عصر العولمة ١٣

❖ مفهوم الثقافة ١٥

❖ ثقافتنا بين الثقافات ٢١

ثقافتنا عربية إسلامية ٢٢

❖ بين الثقافة الدينية والثقافة الإسلامية ٢٥

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية

QaradawiBooks.com

❖ **خصائص ثقافتنا العربية الإسلامية** **٢٧**

فمن خصائص هذه الثقافة ٢٧

• **الانفتاح في ثقافتنا** **٣٩**

❖ **تمهيـــد** **٤١**

الاعتزاز بثقافتنا لا ينافي الانفتاح بضوابطه ٤١

❖ **دلائل الانفتاح في الثقافة الإسلامية** **٤٣**

القرآن مصدِّق مهيمن ٤٣

الرسول أبقى الصالح من أحوال الجاهلية ٤٤

مشروعية اقتباس ما لدى الأمم ٤٥

شرع من قبلنا ٤٦

❖ **المسلم يلتمس الحكمة من أي وعاء خرجت** **٤٩**

المنافق قد يقول كلمة الحق ٥٢

المسلم كالنحلة ٥٤

❖ **ثقافة ترحِّب بالحوار** **٦١**

الحوار لا يسقط حقنا في الدعوة ٦٥

❖ **ثقافة تؤمن بالتجديد** **٦٧**

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

تجديد الدين ٦٧
المجددون المزيفون ٦٨
تجديد اللغة والأدب ٧٣
أدب اللغة ٧٥
الثقافة في مواجهة الدين ٧٩
التنوير بين الحقيقة والتزييف ٨٣

• الانفتـاح المحـذور ٨٩

❖ الانفتـاح قبل النضج ٩٣

❖ الانفتاح المتساهل في الأخذ والاقتباس ٩٧

❖ الانفتاح المبهور بثقافة الغير ١٠١

المرة الأولى مع الفلسفة اليونانية ١٠١

والمرة الثانية مع الثقافة الغربية ١٠٢

• نمـاذج من تراثنـا ١٠٧

❖ تمهيـد ١٠٩

❖ أبـو حامـد الغزالـي ١١١

غير مرخصة للطباعة
نسخة مجانية
QaradawiBooks.com

❖ **أبـو الوليد ابن رشد** **١١٧**

مجال العلميات ١٢٠

مجال الفلسفيات ١٢١

• **فهرس الآيات القرآنية الكريمة** **١٣١**

• **فهرس الأحاديث النبوية الشريفة** **١٣٧**

• **فهرس الموضوعات** **١٣٩**

❊ ❊ ❊

غير مرخصة للطباعة

نسخة مجانية